

من روضه حجة النبوة (في حكاية الغزالي)

کتاب التوبۃ

البُيُوتَةُ إِلَى اللَّهِ

وكمفراة الذنوب

الحجة الاسلام أبو حامد الغزالي

دراسة وتحقيق: **عبد اللطيف عايور**

مكتبة القرآن

للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة ت. ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

AL-MOS TAFI.COM

كلمة المحقق

كثيراً ما أدخلوا — بين العين والحين — إلى مؤلفات « حجة الإسلام أبي حامد الغزالي . فأجد فيها راحة لقلبي ، وسكينة لنفسي ، وبخاصة ما يتعلق منها بالمنجيات .

فلقد قرأت فيما قرأ من التوبة والتائبين :

« أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب أَلَمَ به :

هل لي من توبة ؟ »

فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ؛ فرأى عينيه تذرفان !!

فقال له :

« إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً مُوَكَّلًا به لا يُغلق ؛ فاعمل ولا تيأس . »

ورأيت « إمامنا الغزالي » يضع التوبة على رأس المنجيات في كتابه « إحياء علوم الدين » . ويتناول مكفريات الذنوب تناولاً رائداً ويقرد لهذا البحث كتاباً مستقلاً نظراً لأهميته وأثره في عاجل حياتنا وحلها !!

ولست أخفي عليك — أيها القارئ العزيز — أن هذا الكتاب قد شدني ، وملك عليّ جوانب نفسي ، حيث تصدى « أبو حامد » لشرح حقيقة التوبة ، وبيان شروطها ، وسببها ، وعلامتها وثمرتها ، والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها لما قد لانجده مجتمعاً في كتاب !

وقلت في نفسي : من منا ليس في حاجة عاجلة إلى مراجعة نفسه ، والإقبال على ربه ؛ ليتوب إليه توبة نصوحاً ؟ ولكن كيف السبيل !!؟ وأين الطريق إلى ذلك الباب المفتوح .. « باب التوبة » !!؟

وهنا بررت فكرة إخراج هذا الكتاب .. لماذا لا نعهده للفكر ؟ ولِمَ لا نيسره للذكر ؟ لينير لكل مسلم طريق التوبة حتى يكون مع الذين أنعم الله عليهم ورضى عنهم ورضوا عنه .

وها هوذا بين يديك ؛ فإن وفقنا فمن الله وحسبنا الله ونعم الوكيل ،،،

عبد اللطيف عاشور

أول شعبان ١٤٠٦ هـ

١٠ من إبريل ١٩٨٦ م



دراسة التحقيق

- هذا الكتاب !
- المؤلف .
- عصره .
- مؤلفاته .
- حجة الإسلام الغزالي مؤلفاً ومجدداً .
- منهج التحقيق .

هذا الكتاب

نوع فريد متميز بين غيره من الكتب التي تناولت موضوع التوبة والتائبين؛ فلقد من مؤلفه حدها، وحقيقتها، وسببها الذي به تجلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تُتعرّف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل.

وقد نجد من صنف في هذه لمعانى كتباً ولكن المؤلف — وهو أعلم بما صنف — يقول:

يمتاز هذا الكتاب عن تلك الكتب بخمسة أمور:

الأول — حل ما عقدوه، وكشف ما أجهلوه.

الثاني: ترتيب ما بدؤوه، ونظم ما فرقوه.

الثالث — إيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه.

الرابع — حذف ما كرروه، وإثبات ما حرروه.

الخامس — تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يُتعرّض لها في الكتب أصلاً.

ومن أجل هذا كان حرصنا على حسن إعداد هذا الكتاب للنشر وتقديمه لقرائنا وما هو ذا بين يديك!

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبين لنا طريق التوبة، وأن يبيّن لنا من أمرنا رشداً.



المؤلف أبو حامد الغزالي

- ولد أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي في قرية « غزالة » من أعمال « طوس » سنة ٤٥٠ هـ ..
- تنقل في طلب العلم ما بين « طوس » إلى « جرجان » و« نيسابور » حيث لازم إمام الحرمين الجويني، وصار من أخص تلاميذه .
- لقي الوزير « نظام الملك » بعد موت إمام الحرمين فعرف له مكانته، وأنزله خير منزل، وقوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية « ببغداد » بعد أن جرى بينه وبين العلماء مجادلات ومناظرات في عدة مجالس استوجبت إعجاب نظام الملك . وكان يحضر درسه نحو ثلاثمائة من كبار العلماء حيث كانت تشد إليه الرجال .
- ثم ترك الدنيا وزينتها وخرج من بغداد سائحاً متصوفاً (عام ٤٨٨) ، وبدأ بالحج ثم دخل الشام وأقام بها زاهداً ، وفي عزاله ببلاد الشام ألف « كتاب الأحياء » ثم انتقل إلى بيت المقدس ، ثم قصد مصر ، وأقام بالإسكندرية مدة ، ويقول « ابن خلكان » إنه قصد الركوب منها في البحر إلى بلاد المغرب للاجتماع بالأمير « يوسف بن تاشفين » صاحب « مراکش » فبلغه نعيه ، وعندئذ صرف عزمه عن تلك الناحية ، وعاد إلى بغداد ثم خراسان .
- درس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة أخرى ، ثم رجع إلى طوس ، واتخذ إلى جانب درسه مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية .
- قسم وقته بين العبادة والتدريس ومجالسة المتصوفة إلى أن وافاه الأجل (سنة ٥٠٥) في مدينة الطابران قسبة طوس بعد أن ملأ الدنيا علماً وفضلاً وخيراً .



عصر الإمام الغزالي

- (١) هو عصر السلاجقة الذين قاموا بحسرة أهل السنة على الشيعة .
 - (٢) وهو العصر الذي نشط فيه الباطن .
 - (٣) كما ازدحم العصر بأصحاب المذاهب الفلسفية المختلفة فلم يكن عجباً ولا غريباً أن يتصدى « حجة الإسلام » الغزالي لهؤلاء وأولئك .. بالرد .. والتفنيد .. والمناهضة ويعلنها حرباً .. ورسول هجماته وغاراته على جبهات مختلفة كانت وسيكت فيها المناظرة والجدال .. تأليف ، والتصنيف .
- مؤلفاته :
- لو تصدينا لعدد مؤلفاته وحصرها لوجدنا أنها تزيد على السبعين مؤلفاً ؛ منها ما رأى النور ، ومنها ما لا يزال مخطوفاً .. ومن مؤلفاته :
- ١ — تهاافت الفلاسفة .
 - ٢ — مقاصد الفلاسفة .
 - ٣ — عقيدة أهل السنة .
 - ٤ — فضائح الباطنية .
 - ٥ — فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .
 - ٦ — تنزيه القرآن عن المطاعن .
 - ٧ — التبر المسبوك في نصيحة الملوك .
 - ٨ — مكاشفة القلوب .
 - ٩ — المنقذ من الضلال .



حجة الإسلام الغزالي مؤلفاً ومجدداً

نستطيع أن نقسم عمل حجة الإسلام إنتاجه وتجديده في ناحيتين :
الأولى : نقده الفلسفة ومناقشته لها ، ومجديده لعلم الكلام الذي فقد جدته وحياته .

الثانية : « الحجة » على المجتمع الإسلامي المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية ، والروح ، والتحلي بالحقائق .

ويمثل الناحية الثانية كتابه العظيم « إحياء علوم الدين » وقد صنف الغزالي هذا الكتاب ، وقد خرج من بغداد في طلب السعادة واليقين واشتغل بالعبادة والمجاهدة والانقطاع عن الناس . الغزالي إذن مصلح اجتماعي يخصص جزءاً من كتابه بذيوم الغرور يذكر فيه أصناف المغترين ، وفرق كل صنف ، ذكر منهم المغترين من أهل العلم ، وفرقهم ، والمغترين من المتصوفة ، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم ، وقد ذكر مناقذ الشيطان ومداخل النفس في هذه الطبقات وأصنافها وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعقدهم النفسية ما لا يطلع عليها إلا علم كبير من علماء النفس^(١) .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غلوائهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافات ، والكلام ، والجدل ، والتعمق في العلوم الآلية : كالنحو واللغة ، والشعر والغريب ، والاهتمام به .

(١) أبو الأعلى المودودي — حجة الإسلام الغزالي .

١٠ — ميزان العمل .

١١ — إجماع العوام عن علم الكلام .

١٢ — إحياء علوم الدين .

١٣ — الوسيط « في علم الفقه » .

١٤ — البسيط « في علم الفقه » .

١٥ — الوجيز « في علم الفقه » .

١٦ — الخلاصة « في علم الفقه » .

إلى غير ذلك من كتبه التي تصدت لحصرها قوائم الكتب والمخطوطات .



وانتقد الصوفية : بالاكتماء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها .

فأما علم الطب والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم ؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع .

ولقد ذكر من التباسات الصوفية ومبالغتهم شيئاً كثيراً يدل على إنصافه وتدقيقه .

وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق والفهم الديني الصحيح .

ويتجلى لنا ذلك من خلال حديثه عن غرور العامة وطوائف من الأغنياء والفقراء ؛ مما يحول دون « التوبة » ويبعد المسلم عن الصراط المستقيم ويُتيح للشيطان أن يستحوذ عليهم وينسبهم ذكر الله ؛ فيصبحوا من حزبه !! وها هو ذا يفتح باب التوبة لكل هؤلاء وأولئك ليكونوا جميعاً على صراط مستقيم ، طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين . وإذا كان الإمام الغزالي قد جعل الغرور أس المهلكات فقد جعل التوبة على رأس المنجيات .

ويظهر الغزالي مصوراً حاذقاً يتناول بريشته البارة بمجتمع عصره فيصور مخالبه وقسمات وجهه ويجسم وقائعه ونجاعيده ويظهر في ذلك كله ذكاءه وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته وبراعة تصويره وسلامة تفكيره .



منهج التحقيق

- قدمت للكتاب ، وعلفت عليه بما يتيح لصريء المسلم معرفة أنواع الذنوب ومكفراتها وبيىء له كيف يتوب منها .
- قسمت أركان الكتاب الأربعة إلى فصول ، وبذلت جهدي في اختيار العناوين الملائمة لها ليسنى الإمام بها ، والانتفاع بكل ما جاء فيها .
- وضعت على مدخل كل ركن « مرآة » يرى فيها القاريء ما تضمنه ذلك الركن من أفكار ونقاط .
- قدمت للقاريء بياناً تفصيلياً بالذنوب التي منها نتوب مع أقسام الناس في الآخرة طبقاً لما تناوله الإمام الغزالي مما يساعد القاريء على الإمام بالموضوع ، ويثير فيه مزيداً من الشوق إلى استيعابه على الوجه الأكمل .
- أخرجت الكتاب في صورته اللائقة وجعلته في متناول الجميع ، ليسهل تداوله ، والاستفادة مما تناوله .
- وها هو ذا ينضم إلى « إخوة له » من رابع حجة الإسلام الغزالي أصدرتها مكتبة القرآن .
- الزواج الإسلامي السعيد .
- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .
- أصناف المغرورين .
- بداية الهداية .
- الأذكار والدعوات .



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب .

وتتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونمزع الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلي على نبيه محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه ، صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

مبدأ طريق السالكين

أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ؛ ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأئمة آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب آدمي واجترم^(٢) فهي شيشينة يعرفها من أخزم^(٣) ؛ ومن أشبه أبيه فما ظلم ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد

(٢) اجترم : ارتكب ذنباً ونجسماً .

(٣) الشيشينة : الطيبة والمادة . وهي بكسر الشين الأول والثالثة . وكان أخزم عاقاً لأبيه فمات ، فوثب أولاده على جدهم فأدموه فقال : إن تبتى ضرجوى بالدم . « شيشينة أعرفها من أخزم » فأصبح الشطر الثاني من البيت مثلاً يضرب في قرب الشبه . (تهذيب مجمع الأمثال) .

أن هدم ، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإنبات ، والوجود والعدم والله قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلاقي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان . والمقصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان .

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فمخرج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنأ محكماً ، لا يخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار !!





تمهيد

إذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها في صدر ربيع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ؛ والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان :

الركن الأول : في نفس التوبة ، وبيان حدها ، وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ، وعلى جميع الأشخاص ، وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة .

الركن الثاني : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صفائر وكبائر ، وما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات^(٤) والسيئات ، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصفائر .

الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة .

الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة ، وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل .

(٤) لأهل الجنة درجات على الحسنات . كما أن لأهل النار دركات على السيئات وقد جاء القرآن بهذا ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ . ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مَّا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف : ١٩] .

الركن الأول

في نفس التوبة

- بيان حقيقة التوبة وحدّها .
- بيان وجوب التوبة وفضلها .
- بيان أن التوبة واجبة على الفور .
- بيان أن التوبة واجبة على جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال .
- بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة !!



الفصل الثاني

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار^(١) والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل، مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يتهدى بنفسه. وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام. فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة، يفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله، وربما يعوزه ذلك فينحير. فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر، وخطاه قاصرة. ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، فينبته بأدنى إشارة لسلوك طريق معوضة، وقطع عقبات متعة. ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان. وهو لشدة نور باطنه يجتريء بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيتة يضيء ولو لم تمسسه نار. فإذا مسته نار فهو نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة.

(٨) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة: مسلم من حديث الأغر المزني يا أيها الناس توبوا إلى الله الحديث: ولأين ما جاء من حديث جابر يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا — الحديث: وسند ضعيف.

فالعلم والندم، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال. والتلافي للماضي، ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالشجرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام^(٩) «التَّدْمُ تَوْبَةٌ» إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه. فيكون الندم محفوفاً بطريقه، أعني ثمرته ومثمره. وبهذا الاعتبار قيل في حد^(١٠) التوبة أنه «ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ». فإن هذا يعرض لجرد الألم. ولذلك قيل هو نار في القلب تلهب، وصدع في الكبد لا ينشعب^(١١). وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء. وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات الحمودة. ولا يتم ذلك إلا بالخلوة، والصمت، وأكل الحلال. وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة.

والأقويل في حدود التوبة لا تنحصر. وإذا فهت هذه المعاني الثلاثة، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها. وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة.



(٩) حديث الندم توبة: ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه استاده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين.
(١٠) تعرفها.
(١١) الصدع الشق، والانشعاب: الالتام.

ماذا يفعل من أراد أن يعرف وجوب التوبة ؟

فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل صار واجباً بالإيجاب حديث محض . فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالتنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه . فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة ، محول بينه وبين ما يشتهي ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفاني ، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته .

لزوم التوبة للعبد

وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله ، واتباع لحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى . فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب . وإنما يتم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن

المحجوب لم يندم ، ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق العبد . وما لم يتوجع فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا مسك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحجوب . وهكذا يكون الإقبال الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففى التقليل والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى ﴿ وَتَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٩) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾^(١٠) الآية ، ومعنى النصح الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصيح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(١١) . وقال عليه السلام^(١٢) : « التَّائِبُ حَيْبُ اللَّهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » .

فرح الله بتوبة العبد

وقال رسول الله ﷺ^(١٣) : « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ »^(١٤) مَعَهُ رَاجِلَتُهُ صَبِيحاً طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ

(٩) النور : ٣١

(١٠) التحريم : ٨

(١١) البقرة : ٢٢٢

(١٢) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشرط الثاني دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الجواب من حديث أنس بسند ضعيف . إن الله يحب الشاب التائب . ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث علي . إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب .

(١٣) حديث الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة — الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح ألهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصراً .

(١٤) التوبة : المغازاة ، والفلاة : الواسعة .

نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَ رَاجِلُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اسْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ
أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَا مَوْتُ قَوْضَعٍ
رَأْسُهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاجِلُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا رَأْدُهُ وَشَرَاهُ فَاللَّهُ
تَعَالَى أَشَدُّ قَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاجِلِيهِ ۝ وفي بعض الألفاظ قال
من شدة فرحة، إذ أراد شكر الله، أنا ربك وأنت عبدي.

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام: هنأته
الملائكة، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام. فقالا يا آدم قررت عينك بتوبة
الله عليك. فقال آدم عليه السلام: يا جبريل، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال
فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه يا آدم، ورثت ذريتك التعب والنصب، وورثتهم
التوبة. فمن دعاني منهم لبيت كذا لبيتك، ومن سألتني المغفرة لم أدخل عليه، لأنني
قريب محبب يا آدم، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين،
ودعائهم مستجاب. والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من
الأمّة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من
الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى
هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها.

ومن معانيها ترك المعاصي في الحال، والتزم على تركها في الاستقبال،
وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه وأما
التندم على ما سبق، والتحزن عليه، فواجب. وهو روح التوبة، وبه تمام
التلاقي. فكيف لا يكون واجباً! بل هو نوع ألم يحصل لا محالة، عقاب حقيقة
المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف
يوصف بالوجوب؟

فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب. وله سبيل إلى تحصيل سببه.
وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب، لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد

ويحدثه في نفسه، فإن ذلك محال. بل يعلم، والتندم، والفعل، والإرادة،
والقدرة، والقادر، الكل من خلق الله وفعله ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ ۝ هذا هو الحق عند ذوى بصائر. وما سوى هذا ضلال.

بحث في أفعال العبد وهل له اختيار

فإن قلت. أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا نعم: وذلك
لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى. بل الاختيار أيضاً من خلق الله.
والعبد مضطر في الاختيار الذي له فإذا خلق الله إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق
الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا
الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه
مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دود ساوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم
خلق العلم بأنه لا مانع، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجز الإرادة الباعثة على
التناول. فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة، وبعد وقوع الشهوة
للطعام يسمى اختياراً، ولا بد من حصص عند تمام أسبابه. فإذا حصل انجزام
الإرادة يخلق الله تعالى إياها، تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة.
إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضرورياً فتحصل الحركة،
فتكون الحركة يخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضاً من
خلق الله. وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة، والعلم بعدم الموانع،
وهما أيضاً من خلق الله تعالى. ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض
ترتيباً جرت به سنة الله تعالى في خلقه. فمن تجد لسنة الله تبديلاً. فلا يخلق الله
حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيه صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها
حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة. ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة

وميلاً في النفس ولا ينبعث هذا الميل اتباعاً تاماً، ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس، إما في الحال أو في المآل. ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخرى ترجع إلى حركة وإرادة وعلم. فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والقدرة والإرادة أبداً تستتبع الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل. والكل من اختراع الله تعالى. ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض. فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم. فيكون خلق الجسم شرط لحدوث الحياة، لأن الحياة تتولد من الجسم. ويكون خلق العلم شرطاً لخلق العلم، لأن العلم يتولد من الحياة. ولكن لا يستعد الخلق لقبول العلم إلا إذا كان حياً، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة، لأن العلم يولد الإرادة. ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم. ولا يدخل في الوجود إلا ممكن، ولإمكان ترتيب لا يقبل التغيير، لأن تغييره محال. فمهما وجد شرط الوصف استند الخلق به لقبول الوصف، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد. ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب. والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة: وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير. وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعدها. وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١٦) وعن القضاء الكلي الأرتلي العبارة بقوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(١٧) وأما العباد فإنهم مستخرون تحت مجارى القضاء والقدر. ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب، بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة.

(١٦) القمر : ٤٩

(١٧) القمر .

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت التدبير، سبق أهل عالم الملكوت وسادة الضحويون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل، قد تحركت. ورميت، وكنت. ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادت الملكوت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْهِمُ رِمَىٰ﴾^(١٨) وما قتلت إذ قتلت. ولكن ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(١٩) وعند هذا تحير عقول القاعدين في تحييد عالم الشهادة، فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب. ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت، لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأن القصور شامخة لجميعهم، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر، ولم يعط علمه جوائبه. وقد علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب، الشهادة لا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع من الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء.

سِرّ القدر

ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها، ووجه ارتباط مناهل سلسلتها بمسبب الأسباب، انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله، ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من الفائلين بالجبر، والاختراع، والكسب، أنه صادق من وجه، وهو مع مدقة قاصر، وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثل؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته، ولا سمعوا اسمه. فقالوا لا بد لنا

(١٨) الأنفال : ١٧

(١٩) التوبة : ١٤

من مشاهدته ومعرفة بالنفس الذى تقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسه . فوق يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ، ووقع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انصرفوا سأهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذى لمس الباب : ليس كما يقول ، بل هو صلب لا لين فيه ، وأملس لاحتونة فيه . وليس في غلط الأسطوانة أصلاً ، بل هو مثل عمود : وقال الذى لمس الأذن : لعمري هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولكن قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل . ولكنهم تخيلتهم قصرُوا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل اختصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه . وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا .

وجوب التوبة بجميع أجزائها

فلنرجع إلى ما كنا بصددده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة . العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخل في الوجوب ، لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإدته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشملها .



الفصل الثالث

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور . والمتقضى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هى من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصى عن عهده ما لم يصير باعثاً عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان . وهو المراد بقوله عليه السلام (٢٠) « لا يُزْنِي الزَّانِي حِينَ يُزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، ووحدانيته ، بصفاته ، وكنهه ، ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي . وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى . موجباً للمقت . كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب ، وكونه طبيباً وغير مصدق به . بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً . فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان . وليس الإيمان باباً واحداً ، بل هو نيف وسبعون باباً ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل . ليس الإنسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرية ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الأطفال ، نقي البشرية من الخبث ، حتى

(٢٠) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعاً يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع . وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له . قامت مؤيدة للحجة على صاحبها . ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر . كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .



الفصل السابع

بيان أن وجوب التوبة عام

في الأشخاص والأحوال في ينفيك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا . إذ قال تعالى ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . نعم الخطاب . ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه ، معنى التوبة الرجوع عن سبق الميعاد عن الله ، المقرب إلى الشيطان .

ولا يتصور ذلك إلا من عقل ، ولا تحس غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة ، والغضب وسائر الصفات المدببة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان ، إذ كمال العقل إنما يكون بعد مقارنة الأربعين . وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان . فالتطارد بينهما كاللتطارد بين الليل والنهار ، والنور والظلمة . ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشهد قبل كمال العقل ، فقد سبق جند الشيطان ، واستولى على المكان ، ووقع القلب به أنس ، وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة . وغلب ذلك عليه ، ويعسر عليه النزوع عنه . ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنته . ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدرج ، فإن لم يتحرر ولم يكتمل ، سلمت مملكة القلب للشيطان ،

وأعجز اللعين موعده حيث قال ﴿لَا خَيْرَ لَكُمْ فِي دُورِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢٢) وإن كمل العقل وقوى، كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات، ومغارقة العادات، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات. ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق، دليله الشهوة، وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى. وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان، نبيّاً كان أو غيبياً، فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام. وقد قيل.

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هندا

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس، لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها. فإذا كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره. فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبيه، غافلاً عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عاداته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف، بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق، والانفكاك، والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون، إذ عجزوا عنه. وكل هذا رجوع وتوبة.

فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص، لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر، كما لم يستغن آدم. فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً.

وأما بيان وجوبها على الدوام، وفي كل حال، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه. إذ لم يخل عنه الأنبياء، كما ورد في القرآن والأخبار من

(٢٣) الإسراء: ٦٢

خطايا الأنبياء، وتوبتهم، وبكائهم على خطاياهم. فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالتوبة بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم، فلا يخلو عن وسوس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله. فإن خلا عنه، فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله، وصفاته، وأفعاله. وكل ذلك نقص، وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع. ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير. فأما الأصل فلا بد منه. ولهذا قال عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَلَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٢٤) وإذا كان هذا حاله، فكيف حال غيره؟

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من لُغوم والخواطر نقص، وأن الكمال في الخلو عنه، وأن القصور عن معرفة جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع. فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال؟

فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً. وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى. وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة. فإن تراكمت طمة الشهوات صار ريناً، كما

(٢٤) حديث إنه يغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة: مسلم من حديث الأغر المزني إلا أنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إلى استغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار والدعوات.

يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه نجساً، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢٦) فإذا تراكم الرين صار طبعاً (٢٧)، فيطبع على قلبه، كالخبط على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه، غاص في جرم الحديد وأفسده، وصار لا يقبل الصقل بعده، وصار كالملطوع من الخبط. ولا يكفى في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب. كما لا يكفى في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان. وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام (٢٨) «أَتَبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحَّيْهَا».

فإذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه، بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار السيئات هذا في قلب حصل أولاً صفاءه وجلالته، ثم أظلم بأسباب عارضة.

فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل، إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرأة كشتغله في عمل أصل المرأة. فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً. وكل ذلك يرجع إلى التوبة.

فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجباً، بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع، ويشترك فيه كافة الخلق، وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعاش، ورفضوا الدنيا بالكلية. ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعاش لم يفرغ

(٢٦) المطففين: ١٤

(٢٧) الطبع: الختم، والرين الخبط الوسخ.

(٢٨) حديث أتبعت السيئة الحسنة تمحها: الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس.

أحد للتقوى بل شغل الحياكة، والحراثة، والحجر، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار.

والواجب الثاني: هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين، والمقام المحمود بين الصديقين. والنية عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه. كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع، أي لمن يريد بها، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها. فأما من رضى بالنقص والحرام عن فضل صلاة التطوع، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجله. كما يقال العين، والأذن، واليد، والرجل، شرط في وجود الإنسان. يمس أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته، ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا. فأما من قنع بأصل الحياكة، ورضى أن يكون كالحم على بسم (٢٩)، وكخرقة مطروحة، فليس يشترط لمثل هذه الحياكة عين، ويد، ورجل. فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يتوصل إلا إلى أصل النجاة. فأصل النجاة كأصل الحياكة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنهى الحياة، يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنهى الحياة، وفيه معنى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثال فالأمثال، وعليه كان حرصهم، وحوايه كان غنائهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال نعم وما الذي حدث؟ فقال توسدك هذه الحجر تنع في الدنيا، فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر، ووضع رأسه على الأرض. وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التعم. أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟

أفترى أن نبينا محمداً ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم (٣٠) في

(٢٩) الوضوء: خشة الجزل التي يقطع اللحم فوقها والمراد أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

(٣٠) حديث نزع عيسى عليه السلام في الصلاة، تقدم في الصلاة أيضاً.

(٣١) علم الثوب: رسته ورقته.

صلاته حتى نزع^(٣٢)، وشغله شراك^(٣٣) نعله الذي جدده حتى أعاد الشراك الخلق، لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عباده؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أنراً يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟

أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن، وعلم أنه على غير وجهه، أدخل أصبعه في خلقه ليخرجه، حتى كاد يخرج معه روحه، ما علم من الفقه هذا القدر، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به، ولا يجب في فتوى الفقه إخراجها فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسرور في صدره، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون؟

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله، وبطريق الله، وبمكر الله، وبمكامن الغرور بالله. وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور^(٣٤). فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى. في كل نفس من أنفاسه، ولو عمر عمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة. ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يكن العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة، لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات. فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهره نفيسة: وضاعت منه بغير فائدة، بكى عليها لا محالة. وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه، كان بكاؤه منها أشد. وكل ساعة من العمر، بل كل نفس جوهره نفيسة، لا خلف لها، ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد، وتنقذك من شقاوة الأبد. وأي جوهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة، فقد

(٣٢) حديث نزع الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق: تقدم في الصلاة أيضاً.

(٣٣) شراك النعل: سم النعل على ظهر القدم.

(٣٤) الغرور: بفتح الغين — الشيطان.

خسرت خبيراً مميّناً. وإن صرفتها إلى معصية، فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة، فذلك لجهلك. ومصيبتك بجهلك أعظم. من كل مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة. فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته، والناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه. ولكل مصاب مصيبته. وقد رفع الناس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد، أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة، وإنك لا تستأخر عن طرفه عين. فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت الدنيا بخداقيرها^(٣٥) خرج منها؛ على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى، ليستعب فيها ويتدارك تقريطه، فلا يجد إليه سبيلاً. وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٣٦) وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿مَنْ قُلَّ أَنْ يَأْتِيَ أَخَذَ كُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْلَحَ وَاتَّكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾^(٣٧) فقليل الأجل القريب الذي يطلبه. معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: يا ملك الموت، أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربّي وأتوب، وأتزوّد صالحاً لنفسي فيقول: فبئس الأيام فلا يوم. فيقول: فأخرني ساعة. فيقول: فبئس الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة، فيتفرعر بروحه، وتتردد أنفاسه في شر أسفه. ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وخسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال. فإذا زهقت نفسه، فإن كان سبقت له من الله الحسنى، خرجت روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة. وإن سبق له القضاء بالشفقة والعياذ بالله، خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة. ومثل هذا يقال «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ»^(٣٨) وقوله ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾^(٣٩) ومعناه عن قرب عهد

(٣٥) خداقير الشيء أعاليه ونواحيه. الواحد خداقار بالكسر. بخبر.

(٣٦) ساء: ٥٤ (٣٧) المنافقون: ١٠، ١١ (٣٨) النساء: ١٨ (٣٩) النساء: ١٧

الخطيئة بأن يتندم عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرثيق على القلب فلا يقبل المحو .

ولذلك قال ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية . كان بين خطيرين عظيمين : أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي ، حتى يصير ريناً^(٤٠) وطبعاً ، فلا يقبل المحو ، الثاني : أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد في الخبر^(٤١) « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية » فما هلك من هلك !! إلا بالتسوية . فيكون تسويده القلب نقداً ، وجلالته بالطاعة نسيئة ، إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم . ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده . وكذا سائر أسباب الطاعة . فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيأته ، فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإهام . أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبي ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتك عمرك وأثمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني : عند خروج روحه يقول : عبي ، ماذا صنعت في أمانتي عندك ؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد ، فألقاك على الوفاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ أَوْفُوا بَعْثِي أَوْف بَعْثِيكُمْ ﴾^(٤٢) وبقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾^(٤٣)



(٤٠) الزين : الطبع والذنس . يقال ران دنية على قلبه أي غلب . قال أبو عبيدة : في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي غلب . وقال الحسن رضي الله عنه : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب . وقال أبو عبيد : كل ما غلبك فقد ران بك . ورائك وران عليك .
(٤١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجده أصلاً .
(٤٢) البقرة : ٤٠ .

(٤٣) المؤمنون : ٨ .



الفصل الخامس

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تشك أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة . فالناظرون بنور البصائر المستمدون من حرار القرآن ، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ، ومتنعم في الآخرة . جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى . وعلم أن القلب خلق سليماً في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما ملته السلامة بكندورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها . وعلموا أن فسادهم تحرق تلك الغيرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات . كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكندورة الوسخ مع بياض الصابون . وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه . فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره . وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب ، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة . فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ، ويذكره ، ويذكره ، وكل ثوب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول . فإثم عليك الشكية والتطهير . وأما القبول فمقبول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له . وهو المسمى فلاحاً في قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾^(٤٤) .

(٤٤) الشمس : ٩ .

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر ، أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً ، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة ، كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور ، كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً ، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ، ولم يعلق به إلا أسماؤه ، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين . بل عن حقيقة نفسه ، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو غيره أجهل . وأعنى به قلبه . إذ بقلبه يعرف قلبه . فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه .

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل ، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول . إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاوزيف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم : قد يقول باللسان : تبت ، فيكون ذلك كقول القصار^(٤٥) بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا ، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة . ولكننا نعضد جناحه بنقل الآيات ، والأخبار ، والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به . وقد قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾^(٤٦) وقال تعالى ﴿ غَافِرِ الذُّلْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾^(٤٧) إلى غير ذلك من الآيات .

(٤٥) القصار : الذي يديق الثياب ويبيضها ويحورها .

(٤٦) الشورى : ٢٥

(٤٧) غافر : ٣

وقال ﷺ « **لله أفرح بتوبة أحدكم** » الحديث . والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال ﷺ^(٤٨) « **إن الله عز وجل يسقط يده بالتوبة** » لئلا يلقى الليل إلى النهار ولمسئ التهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والغالب وراء القابل ، قرب ، قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال ﷺ^(٤٩) « **لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندتم لقاب الله عليكم** » وقال أيضاً^(٥٠) « **إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة** » فتبيل كيف « **لت يا رسول الله ؟** » قال « **يكون تصب عليه ثياباً يمنة فأراً حتى يدخل الجنة** » . وقال ﷺ^(٥١) « **كفارة الذنب الندامة** » وقال ﷺ « **الثائب من الذنب كمن لا ذنب له** » .

ويروى^(٥٢) أن حبشياً قال يا رسول الله ، إن كنت أعمل الفواحش ، فهل لي من توبة ؟ قال نعم . فولى ثم رجع فقال ، رسول الله ، أكان يراني وأنا أعملها ؟ قال نعم . فصاح الحبشي صيحة خمرت فيها روحه . ويروى^(٥٣) أن

(٤٨) حديث الله يسقط يده بالتوبة لمسئ الليل إلى النهار — الحديث : مسلم من حديث أنى موسى بلفظ يسقط يده بالليل ليتوب مسئ النهار — الحديث : وفي رواية لمطيراني لمسئ الليل أن يتوب بالنهار — الحديث .

(٤٩) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندتم لقاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أنى هريرة واستاده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبت .

(٥٠) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة — الحديث : ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً ولأنى نعم في الحلية من حديث أنى هريرة أن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له — الحديث : وفيه صالح القرى وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولأنى أنى الدنيا في التوبة من حديث ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنوب بالذنوب والحديث غير محفوظ قاله العقيلي .

(٥١) حديث كفارة الذنب الندامة : أحمد والطبراني وهو في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمر ابن مالك الشكري ضعيف .

(٥٢) حديث إن حبشياً قال يا رسول الله إن كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم — الحديث : لم أجده أصلاً .

(٥٣) حديث إن الله لما لعن إبليس سأل النظره فأظهره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح — الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم . صححه من حديث أنى سعيد أن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتك وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا و كذا إلى النبي ﷺ فذكرته احتياطاً

الله عز وجل لما لعن إبليس ، سأله النُّظْرَةُ^(٥٤) : فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : وعزتك لا أخرجتك من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى . وعزتي وجلالي لا حاجت عني التوبة مادام الروح فيها . وقال عليه السلام ^(٥٥) : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الْوَسْخَ » والأخبار في هذا لا تحصى .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ سَاءُ الْمَقَاصِلِ ﴾^(٥٦) الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم . وحذر الصديقين أي إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم . وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها قلبه ، محبت عنه في أم الكتاب .

ويروى أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزتي لعن عدت لأعذبتك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم تعصمني لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس : ليتني لم أوقعه في الذنب . وقال حبيب بن ثابت . تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إني قد كنت مشفقاً منه ، قال : فيغفر له .

ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن

(٥٤) النُّظْرَةُ : الإمهال ... والتأجيل . قال رب فأنظرنى إلى يوم يعثون .. ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [الحجر : ٣٧]
(٥٥) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواء الترمذي وتقدم قريباً .
(٥٦) الاسراء : ٢٥ .

للجنة ثمانية أبواب ، كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم . تذاكر . مع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى ﴿ إِنَّ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَفَءَ ﴾^(٥٧) . فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً . ولقد بين أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنباً ثم تدم عليه حمة عين ، سقط عنه أسرع من طرفه عين . وقال عمر رضي الله عنه : اجلس إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة . وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي . قيل : متى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أخرم التوبة أخوف من أن أخرم المغفرة . أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة .

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر في المرأة قرأى الشيب في لحيته ، فسأه ذلك ، فقال : إلهي أطعنتك عشرين سنة . ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلني ؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شحماً . أحبيتنا فأحبيناك ، وتركنا فتركناك ، وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : إن الله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب ، وستوها بماء التوبة . فأثمرت تدماً وحرناً . فجنتوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عتى ولا بكى ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفين بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس العمداء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولعت قلوبهم في الملكوت . وجالت أفكارهم بين سرايا . حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم . وقربوا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى غير الزهد يسلم الورع . فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلنوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ،

(٥٧) الأنفال : ٣٨

وسرحت أرواحهم في العلا ، حتى أناخوا في رياض النعيم ، وخاضوا في بحر الحياة ، وردموا خنادق الجرع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بقناء العلم ، واستقوا من غدِير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة .

فإن قلت : أقول ما قاله المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول : لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا ما يريدُه القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت . وليس في شيء من ذلك ما يريدُه المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والخسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلًا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة . فلا واجب على الله تعالى . ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة . فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه ، فلم يشك فيه .

فأقول : شك في القبول كشك في وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل ، وذلك لشك في حصول شروط الإسهال في الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك في قبولها لا محالة ، على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .



الركن الثاني

فيما عنه التوبة وهي الذنوب
صغائرها وكبائرها

- بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد .
- بيان ما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحسن الله تعالى .
- بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا .
- بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب .



الفصل الأول
بيان أقسام الذنوب
بالإضافة إلى صفات العبد

تمهيد وتهيئة

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته .

وإذا كانت التوبة واجبة ، كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً .
فمعرفة الذنوب إذاً واجبة .

والذنوب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، في ترك أو فعل .

وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ،
وليس ذلك من غرضنا .

ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها .

والله الموفق للصواب برحمته .

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة . على ما عرف شرحه في كتاب
عجائب القلب وغوائله ولكن تمحصر مشارات الذنوب في أربع صفات :

وميلاً في النفس ولا ينبعث هذا الميل اتباعاً تاماً، ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس، إما في الحال أو في المآل. ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخرى ترجع إلى حركة وإرادة وعلم. فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل. والكل من اختراع الله تعالى. ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض. فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم. فيكون خلق الجسم شرط لحدوث الحياة، لأن الحياة تتولد من الجسم. ويكون خلق العلم شرطاً لخلق العلم، لأن العلم يتولد من الحياة. ولكن لا يستعد الخلق لقبول العلم إلا إذا كان حياً، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة، لأن العلم يولد الإرادة. ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم. ولا يدخل في الوجود إلا ممكن، ولإمكان ترتيب لا يقبل التغيير، لأن تغييره محال. فمهما وجد شرط الوصف استند الخلق به لقبول الوصف، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد. ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب. والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة: وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير. وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعدها. وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١٦) وعن القضاء الكلي الأرتلي العبارة بقوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(١٧) وأما العباد فإنهم مستخرون تحت مجارى القضاء والقدر. ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب، بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة.

(١٦) القمر : ٤٩

(١٧) القمر .

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت التدبير، سبق أهل عالم الملكوت وسادة الضحويون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل، قد تحركت. ورميت، وكنت. ونودي من وراء حجاب الغيب وسردقات الملكوت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْهِمُ رِمَىٰ﴾^(١٨) وما قتلت إذ قتلت. ولكن ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(١٩) وعند هذا تحير عقول القاعدين في تحييد عالم الشهادة، فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب. ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت، لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأن القصور شامخة لجميعهم، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر، ولم يعط علمه جوائبه. وقد علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب، الشهادة لا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع من الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء.

سِرّ القدر

ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها، ووجه ارتباط مناهل سلسلتها بمسبب الأسباب، انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله، ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من الفائلين بالجبر، والاختراع، والكسب، أنه صادق من وجه، وهو مع مدقة قاصر، وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثل؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته، ولا سمعوا اسمه. فقالوا لا بد لنا

(١٨) الأنفال : ١٧

(١٩) التوبة : ١٤



الفصل الثاني

بيان ما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين الله وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعباد خاصة كركن الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به . وما يتعلق بحقوق العباد كركن الزكاة وقتله النفس ، وغصبه الأموال ، وشتمه الأعراض . وكل متناول من حق الغير فإما نفس ، أو طرف ، أو مال ، أو عرض ، أو دين ، أو جاه . وسأول الدين بالإغواء ، والدعاء إلى البدعة ، والترغيب في المعاصي ، ونهج أسس الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف ، وما يتعلق بالعباد ، فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً ، فالعفو فيه أرجى وأقرب . وقد جاء في الخبر ^(٥٩) : « **الدُّوَانُ ثَلَاثَةٌ : دِيْوَانُ يُغْفَرُ وَدِيْوَانُ لَا يَتْرَكَ فَالدِّيْوَانُ الَّذِي يُغْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ يَسْمُو دِيْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يَتْرَكَ فَمُظَالِمُ الْعِبَادِ** » أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها

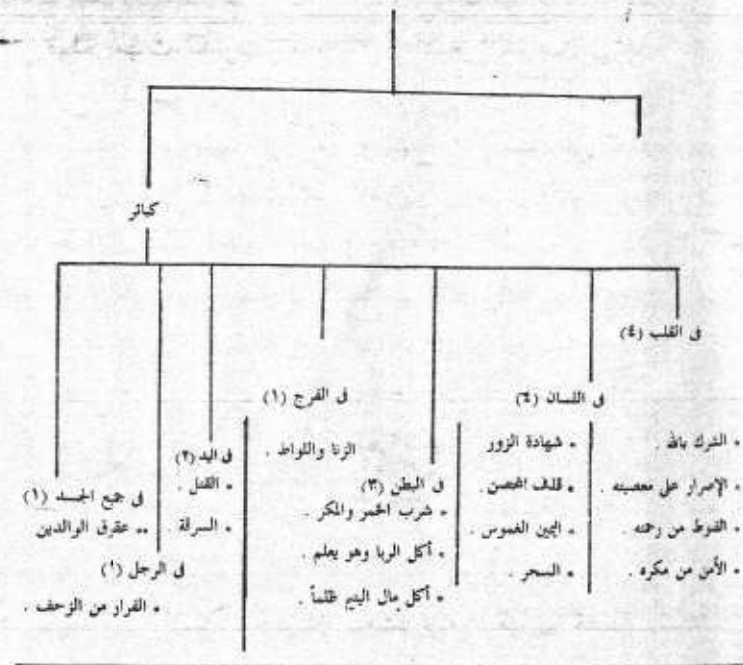
قسمة ثالثة :

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها . فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى ﴿ **إِنْ تَجَسَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ لَكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ وَلَدْخَلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** ﴾ ^(٦٠) وقال تعالى ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ كِبَائِرَ الذُّنُوبِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا** »

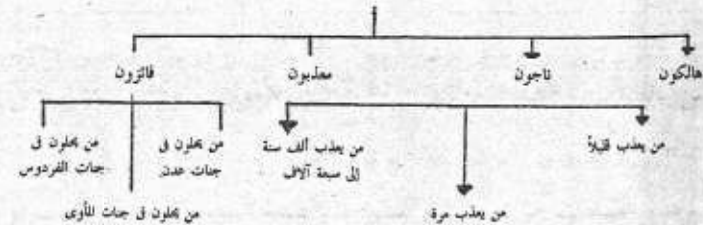
(٥٩) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر - الحديث : أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة ابن موسى الديلمي ضعفه إبراهيم وغيره - يلاحظ من حديث سلمان ورواه الطبراني .

(٦٠) النساء : ٣١

الذنوب التي منها نوب



أقسام الناس في الآخرة حسب ذنوبهم



اللَّيْمُ ^(٦١) وقال ^(٦٢) « الصَّلَاةُ الْخُمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ يُكْفَرْنَ مَا بَيْنَهُنَّ إِنْ اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ » وفي لفظ آخر « كَفَّارَاتُ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكِبَائِرُ » وقد قال ^(٦٣) فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص « الْكِبَائِرُ الْأَشْرَاكُ بِاللَّهِ وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغُمُوسُ » .

تحديد الكبائر من الصغائر

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر ، من أربع إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود ، من أربع . وقال ابن عمر : من سبع . وقال عبد الله بن عمرو . من تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ^(٦٤) « إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ » ^(٦٥) فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكي . الكبائر سبع عشرة ، جمعتها من جملة الأخبار ^(٦٥) . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر وغيرهم ، أربعة في القلب ، وهي الشرك

(٦١) الحجم : ٣ . والليم : صغار الذنوب

(٦٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتبت الكبائر : مسلم من حديث أبي هريرة .

(٦٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الأشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس ورواه البخاري .

(٦٤) النساء : ٣١

(٦٥) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله ، والإصرار =

بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمة ، والأمن من مكروه . وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهي التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلاً ولو سواها من أراك وسجيت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان ، سائر الأجسام عن موضوعات الخلق .

= على معصيته ، والقنوط من رحمة ، والأمن من مكروه ، وشهادة الزور . وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر ، وشرب الخمر ، والمسكر ، وأكل مال اليتيم ظمناً وأكل الربا ، ولزنا والوطاء ، والقتل ، والسرقة والفلأر من الزحف ، وعقوق الوالدين ، انتهى وذكر ما ورد منها مرلوفاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله ، وما هي قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والثبوت يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، ولهما من حديث أبي بكره ألا أنيكم بأكبر الكبائر الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، أو قال قول الزور لهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقال ألا أنيكم بأكبر الكبائر : قال قول الزور ، أو قال شهادة الزور ، ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال أن تقتل ولدك خائفاً أن يطعم معك قلت ثم أي ؟ قال أن تزاوي حليلة جارك وللطبراني من حديث سليمان بن قيس إنما هي أربع لا تشرکوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنا ، ولا تسرقوا . وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يابعون على أن لا تشرکوا بالله شيئاً ولا تزنا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الحمر أم الفواحش ، وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللإيزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر قال : الشرك بالله ، والإياس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ، ومنع الفحل ، وفيه صالح بن حيان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أوطن الإشراف بالله ، وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف للطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حشمة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه الرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلاب الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلل البيت الحرام وللطبراني من حديث واللة إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن يتنقى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والده ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أرى الربا الاستغالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من =

وثلاث في البطن، وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم. واثنان في الفرج، وهما الزنا واللواط.

واثنان في اليدين، وهما القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين، وهو الفرار من الزحف، الواحد من اثنين، والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد، وهي عقوق الوالدين، قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما. وإن سألاه حاجة فلا يعطيها. وإن يسبه فيضربهما. ويجوعان فلا يطعمهما.

هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه. فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر، وهي جناية على الأموال ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل. فأما فقء العين، وقطع اليدين، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب، فلم يتعرض له. وضرب اليتيم وتعذيبه، وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل

حديث ابن عباس أنه عليه السلام مر على قبرين فقال لهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشي بالجمجمة وأما الآخر فكان لا يستر من بوله - الحديث : ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكر أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث : ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيا رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستغفره البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لا صغيرة مع أصرار وفيه أبو شيبة الخراساني والحديث منكر يعرف به (وأما الموقوفات) فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشرار بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشرار بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس والفاحشة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمداً وأشباه مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح يختلف فيه وروى أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس عن أنس قوله لا صغيرة مع الأصرار واستاده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح استاده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف وللبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى سبعين أقرب وروى البيهقي أيضاً فيه عن ابن عباس قال كل ما نهي الله عنه كبيرة والله أعلم.

ماله. كيف وفي الخبر « من الكبائر (٦٦) الستان بالسببة ومن الكبائر استعطالة الرجل في عرض أخيه المسلم » وهذا زاد على قذف المحصن. وقال (٦٧) أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر.

وقالت طائفة كل عَمْد كبيرة، وكل ما سئى الله عنه فهو كبيرة : وكشف الغطاء عن هذا : أن نظر الناظر في الدقة هي كبيرة أم لا، لا يصح، ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها. كتقول القائل السرقة حرام أم لا، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم بحث عن وجوده في السرقة. فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم، ليس له موسوع خاص في اللغة ولا في الشرع. وذلك لأن الكبير والصغير من المضامين، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزنا. وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما توعده بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة. ونحى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة : وله أن يطلق على ما أوجب الله عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيمة، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه، فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمة، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة. إذ منصوبات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها.

(٦٦) حديث من الكبائر الستان بالسببة ومن الكبائر استعطالة الرجل في عرض أخيه المسلم : عزاه أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أرى الربا استعطالة في عرض المسلم بغير حق كما تقدم.

(٦٧) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من الموقوفات. يدل الكبائر ورواه البخاري من حديثه أنس وأحمد والحاكم من حديث عباد بن قرص وقال صحيح الاسناد.

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها . وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على **هـ** من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ (٦٨) وقول رسول الله ﷺ « **الْصَّلَاةُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكِبَايِرَ** » فإن هذا إثبات حكم الكبائر .

تحديد الغزالي في الفرق بين الصغيرة والكبيرة

والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها . وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه : فالطمع في معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ ، بأن يقول إني أردت بالكبائر عشرًا ، أو خمسًا ، ويفصلها ، فإن لم يرد هذا ، بل ورد في بعض الألفاظ (٦٩) ثلاث من الكبائر ، وفي بعضها (٧٠) سبع من الكبائر . ثم ورد أن السنتين بالنسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع ! وربما قصد الشرع إيامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها . نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها

(٦٨) النساء : ٣١

(٦٩) حديث ثلاث من الكبائر : الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنيكم بأكبر الكبائر ثلاثاً — الحديث : وقد تقدم .

(٧٠) حديث سبع من الكبائر : طب في الأوسيط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وإلى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر — الحديث : ثم عددهن سبعاً وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا سبع الموبقات .

بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرها بالظن والتقريب ، عرف أيضاً أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته .

وبيانه أيضاً أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار لبصائر جميعاً ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، « عادة لقاؤه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، « كتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي** ﴾ (٧١) أى ليكونوا عبيدًا لي . ولا يكون العبد عبدًا ما لم يعرف ربه ، الربوبية ، ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود لأقصى بيعته الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام (٧٢) « **الدُّنْيَا مَرْزَعَةٌ الْآخِرَةُ** » فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابه للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيان : النفوس والأموال . فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر . ويلي ما يسد باب حياة النفوس ، ويلي ما يسد باب المعاش التي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب .

فحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضروري في مقصود الشرائع كلها . وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد بيعته إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفة ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب .

(٧١) الذاريات : ٥٦ .

(٧٢) حديث الدنيا مزرعة الآخرة : لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى العجلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث : واسناده ضعيف .

المرتبة الأولى من الكبائر (الكفر)

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله، وهو الكفر. فلا كبيرة فوق الكفر. إذا الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل. والوسيلة المقربة له إليه وهو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته، وبعدة بقدر جهله. ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً، الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته. فإن هذا أيضاً عين الجهل. فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً، ولا أن يكون آيساً. ويتلو هذه الرتبة البدع كلها، المتعلقة بذات الله، وصفاته، وأفعاله. وبعضها أشد من بعض. وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه، وبأفعاله، وشرائعه، وبأوامره، ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل، وإلى ما يشك فيه. وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطعم.

المرتبة الثانية من الكبائر (القتل) ما يتعلق بالنفوس

المرتبة الثانية: النفوس. إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة، ونحصل المعرفة بالله. فقتل النفس لا محالة من الكبائر، وإن كان دون الكفر. لأن ذلك يصد من عين المقصود، وهذا يصد من وسيلة المقصود. إذ حياة الدنيا لا تتراد إلا للآخرة، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى.

قطع الأطراف

ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف. وكل ما يفضي إلى الهلاك، حتى الضرب. وبعضها أكبر من بعض.

الزنا واللواط

ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه اجتماع الناس على الاكتفاء بالذكر في قضاء الشهوات انقطع النسل، ونفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود، ولكن يشوش الانساب. ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها. بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا، ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإثبات ينخص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يعمور أن يكون الزنا مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح. وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود، ولا يمنع أصله. ولكنه يفوت تمييز الأسباب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل وينبغي أن يكون أشد من اللواط، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيلحق وقوعه، ويعظم أثر الضرر بكثرة.

المرتبة الثالثة من الكبائر (ما يتعلق بالأموال)

المرتبة الثالثة: الأموال. فإنها معاش الخلق، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاعوا، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما. بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس. إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها، وإن أكلت أمكن تغريمها. فليس يعظم الأمر فيها نعم: إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له؛ فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق:

السيرة:

أحدها: الخفية، وهي السرقة. فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك؟

أكل مال اليتيم :

الثاني : أكل مال اليتيم . وهذا أيضاً من الخفية . وأعنى به في حق الولي والقيم ، فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة في الوديعة ، فإن المودع خصم فيه يتصف لنفسه .

شهادة الزور :

الثالث : تفويتها بشهادة الزور .

اليمين الغموس :

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس^(٧٣) . فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جديدة بأن تكون مرادة بالكبائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها

أكل الربا :

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبائر ، فأكل الربا أكل برضا المالك ، ولكن دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر . وذلك واقع في مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما

(٧٣) الغموس : الكاذبة التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار .

لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً في الدين .

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي : القذف ، والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين .

شرب الخمر :

أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكسب من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً . لأن أصل محظوظ ، كما أن النفس محظوظة بل لا خير في النفس دون العقل . فإزالة عقل من الكبائر . ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة . وإنما هو شرب ماء نجس . والقطرة وحدها في محل الشك . وإيجاب الشرع الحد به على تعظيم الله ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع . وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فالتوقف فيه مجال .

القذف :

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض . والأعراض دون الأموال في الرية . ولتناولها مراتب . وأعظمها تناول بالزنا ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظناً غالب أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تحرمه الصلوات الخمس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرد لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني ، فله أن يشهد ، ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضرورياً في مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات . فإذا هذا أيضاً يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر .

السكر :

وأما السكر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس ، أو مرض ، أو غيره .

الفرار من الزحف وعقوق الوالدين :

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإحلالهم من أوطانهم ، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ما قيل فيه ، فالتوقف فى هذا أيضاً غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحقق بالكبائر .

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعنى بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً ، وإلى ما ينبغي أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذا لا مطمع فيه ، فطلب رفع الشك فيه خال .

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها . فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده .

فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هى دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرهما . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها . وهذا أمر يتعلق بالآخرة . والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرعون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ^(٧٤) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر صغيرة إذا اجتنابها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فكيف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيراً فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عينياً ، أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز . أو كان قادراً ولكن استنع الخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ، ولو أبيع له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصفائر التى هى من مقدماته ، كسماع الملاهى والأوتار . نعم : من شتهي الخمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع .

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك ، وتكون من التشابهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص . ولم يرد النص بعد ، ولا جامع ، بل ورد بالفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ ^(٧٥) « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ إِشْرَاكٍ بِاللَّهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْتُ الصَّفَقَةِ » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة ، ونكت الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لا محالة مبهماً .

فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكفر ، والورع عن الصغائر ليس شرطاً فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب ، ويشرب فى أوانى الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم

(٧٤) النساء : ٣١

(٧٥) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكت الصفقة — الحديث : الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد .



الفصل الثالث

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا .

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة . والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، والآخرة حالتك بعد الموت . فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القرب الداني منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فبنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم اسكوت .

ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ ^(٧٦) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال ﷺ ^(٧٧) « **النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا** » وما سيكون في ليقظة لا يتبين لك في النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال . وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن في يدي خاتماً أختتم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر . قل صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها ، فإنها أملك سبيت في صفرك ، لأن الزيتون أصل

(٧٦) العنكبوت : ٤٣ .

(٧٧) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعاً وإنما جرى إلى علي بن أبي طالب .

يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعي رضي الله عنه : إذا شرب الخنفي البيذ حددته ، ولم أرد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يرد به الشهادة . فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تنور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدر في العدالة ، إلا ما لا يخفى الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات ، كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب في بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والعلام ، وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأموال الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك . ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام . والتيارات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاحى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب ، والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصغائر من هذا القليل . فإلى مثل هذا المتهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردّها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة .

ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واطب عليها لأثر في رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وتلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشرطنج ، والترجم بالنساء على الدوام وغيره . فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .



الزيت . فهو يرد إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سبت في صغره . وقال له آخر : رأيت كأنى أقلت الدر في أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال .

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نغنى بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقاً . وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم . والختم به على الفروج رآه كاذباً ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقاً ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذي يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق . ولذلك قال ﷺ (٧٨) « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ يَنْ أَصْبَغِينَ مِنْ أَصَابِعِ الرَّخْمِينَ » وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون . فأما الجاعل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل ، لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً ، فثبت لله تعالى يداً وأصبعاً ، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً .

وكذلك في قوله ﷺ (٧٩) « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علواً كبيراً .

ومن ههنا زل من زل في صفات إلهية ، حتى في الكلام ، وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول .

وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، بجمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقول ﷺ (٨٠) « يُؤْتَى بِالْمُوتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي

(٧٨) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم .

(٧٩) حديث أن الله خلق آدم على صورته : تقدم .

(٨٠) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذهب : متفق عليه من حديث أبي سعيد .

صُورَةً كَبِشٍ أَمْلَحٍ قَيْذَبِحَ ، فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : يا سبحان الله : الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسماً هل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسرارهم فقال ﴿ وَمَا يَتَّقِيلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾ (٨١) ولا يدرى المسكين أن من قال : رأيت في منامي أنه جيء بكبش ، وقبل هذا هو الوباء الذي في البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت : والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبح وقع اليأس منه ، فإذا المعبر صادق في تصديقه ، وهو صادق في رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ ، عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثل ضربه له لأن النائم إنما يحمل المثل . فكان مثاله صادقاً ، وكان معناه صحيحاً .

فالرسل أيضاً يكلمون الناس في الدنيا ، وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفاً بعباده ، وتيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبتت المعاني فيها بواسطة . ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) عن نهاية القدرة ، وعبر ﷺ ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ يَنْ أَصْبَغِينَ مِنْ أَصَابِعِ الرَّخْمِينَ » عن سرعة التقلب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ريع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض

فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، لا يمكن إلا بضرب المثل ، فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته ، فنقول :

(٨١) النكبات : ٤٣ .

(٨٢) يس : ٨٢ .

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر، كما تفاوتوا في السعادة الدنيا وشقاوتها. ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى ألبتة. فإن مديبر الملك والمملوك واحد لا شريك له، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول:

أقسام الناس في الآخرة

الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين وفائزين. ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلع بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون. فإن كان الملك عادلاً، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك؛ معانداً له في أصل الدولة. ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته. ولا يخلع إلا معترفاً له برتبة الملك، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه. ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة، أو تنكيلاً بالمثلثة، بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة، والشدة، وطول المدة وقصرها، واتحاد أنواعها واختلافها، بحسب درجات تقصيرهم.

فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر. فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون. فمن هالك، ومن معذب مدة، ومن ناج يخل في دار السلامة. ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يخلون في جنات عدن، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس. والمعذبون

ينقسمون إلى من يعذب قليلاً، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر^(٨٣). وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تفاوت درجاتهم. وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزيعها عليها رتبة الهالكين:

الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين. وتعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى، إذ الذي قتله الملك في المثل الذي ضربه آيس من رضا الملك وإكرامه، فلا تغفل عن معاني المثل. وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين، المتجردين للدنيا، المكذبين بالله ورسوله وكتبه. فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه، وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق. والجاحدون هم المنكرون. والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباء، وهم الذين يكذبون برب العالمين، وأنبيائه المرسلين، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة، وكل محجوب عن محبوبه فمحجول بينه وبين ما يشتهي لا محالة. فهو لا محالة يكون مختزلاً نار جهنم بنار الفراق. ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للجنات العن، وإنما مطلبنا اللقاء، ومهربنا من الحجاب فقط، وقالوا: من يعبد الله بعوض فهو لقيم، كأن يعبد لطلب جنته. أو لخوف ناره بل العارف يعبد لذاته، فلا يطلب إلا ذاته فقط. فأما الجور العن والغواكه، فقد لا يشتهيها. وأما النار، فقد لا يتقيها. إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلت النار المحرقة للأجسام. فإن نار الفراق نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة. ونار جهنم

(٨٣) حديث أن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة: المسمى الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثاً فيه حل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة.

لا شغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحق مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد روى من غلب عليه الوجد فغدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال ، فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال ، لأن الغضب نار في القلب . قال رسول الله ﷺ « الْقَضْبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيوف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاًماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ، ويستحقيره بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان . وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ، ولم يعد ذلك ألماً ، وقال . العلو في الميدان مع الصولجان ، أحب إلي من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء .

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوباً ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذاً . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يتلذذها إلا القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان ،

(٨٤) حديث الغضب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم .

والسمع إلا في الآذان ، فلا تكون هذه الصفة لا في القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر . ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . وله كان لما صح قوله تعالى ﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٨٥) فحس من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب . وليست أعنى بالقلب هذا الذى تكسبه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الامر . وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسىه ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته والله الخلق والأمر جميعاً . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه ﴿ قُلْ لِرُوحٍ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (٨٦) هو الأمير والملوك : لأن بين عالم الامر وعالم الخلق نبياً ، وعالم الامر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى المطوى تحت قوله ﷺ « إِنِّ اللَّهُ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين في طريق تأويله وإن كانت رحمة للحاملين على اللفظ أكثر من رحمة للمتعسفين في التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الامر . فالحقيقة فضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهي حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

ولنعبد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها في هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة اخلاق ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله ورسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نوردتها .

الرتبة الثانية : رتبة المعذنين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر في الوفاء ، فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن

اتبع هواه فقد اتخذ إلهه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾^(٨٧) وهو أن تنذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾^(٨٨) ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف في الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قادح في كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . لذلك يقتضى لا محالة نقصاناً في درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلة .

وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُلَوِّزُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾^(٨٩) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأننا نيقن أننا على النار واردون ، وشككتنا في النجاة . ولما روى الحسن الخبر الولد^(٩٠) فيمن يخرج من النار بعد ألف عام . وأنه ينادى يا حنان يا منان . قال الحسن : يا ليتنى كنت ذلك الرجل .

واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد .

(٨٧) الأنعام : ٩١ (٨٨) فصلت : ٣٠ (٨٩) مريم : ٧١ ، ٧٢

(٩٠) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان : أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسطل عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون

وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه ، وأدناه تعذيب المناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ، ثم يغفو . وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب به ، آخر من العذاب .

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط . كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحريم ، وتعذيب الأقارب ، واضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات تمة في عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع . وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقتلها ، وكثرة السيئات وقتلها .

أما شدة العذاب فشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرة فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، وهو المعنى قوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(٩١) وبقوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾^(٩٢) وبقوله تعالى ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾^(٩٣) وبقوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٩٤) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة ، من كون العقاب والواب جزاء على الأعمال . وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبياً عليه السلام^(٩٥) « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » وقال تعالى ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٩٦) فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً . ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار .

(٩١) فصلت : ٤٦ (٩٢) غافر : ١٢ (٩٣) النجم : ٣٩ (٩٤) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٩٥) حديث سبق رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبي هريرة .

(٩٦) النساء : ٤٠

فقول كل من أحكم أصل الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، أعنى الأركان الخمسة، ولم يكن منه إلا صفات متفرقة لم يصّر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط. فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته. إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كفارات لما بينهن. وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر. وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب. وكل من هذا حاله فقد تقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان، وبعد الفراغ من الحساب، في عيشة راضية. نعم: التحاقه بأصحاب اليمين، وبالقرين، ونزوله في جنات عدن، أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام، يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه، وإيمان كشفى يحصل بانسراح الصدر بنور الله، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله. فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون، ومنهم من دونهم. وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى: ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر، إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم، ويقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل. فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم.

وأما المؤمن تقليدياً من أصحاب اليمين. ودرجته دون درجة المقربين. وهم أيضاً على درجات: فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر، وأدى الفرائض كلها. أعنى الأركان الخمسة، التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر، أو أهمل بعض أركان الإسلام. فإن تاب

توبة نصوحاً قبل قرب الأجل، التحق بمن . ارتكب . لأن الثابت من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كاللدى . غسغ أصلاً .

وإن مات قبل التوبة، فهذا أمر يخاطر به الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جزمياً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال. والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة. كلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان، إلا أن يعفو الله، عذاباً على عذاب مناقشة في الحساب. وتكون كثرة العقاب من حيث المدة، بحسب كثرة مدة إصرار. ومن حيث الشدة، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف الأعمال، بحسب اختلاف أصناف السيئات. وعند انقضاء مدة العذاب، بل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين. ففي الخبر^(٩٧) «مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشْرَةَ أَضْعَافٍ» فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأنه بل فرسخ بفرسخين، أو عشرة بعشرين، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثلة. بل هذا كقول القائل: أخذ منه جهاً وأعطاه عشرة أمثاله، وكان الجمل ساوى عشرة دنانير، فأعطاه مائة دينار. فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن، والثقل، فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان، والجمل في الكفة الأخرى، عشر عشره. بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها، دون أشخاصها وهياكلها، فإن الجمل لا يقصد لثقله، وطوله وعرضه، ومساحته، بل لماليته. فروحه المالية، وجسمه اللحم والدم، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية، لا بالموازنة الجسمانية. وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب أو الفضة. بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال، وقيمتها مائة دينار، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً. ولكن لا يدرك صدقه إلا جوهريون. فإن روح الجوهريّة لا تدرك بمجرد البصر، بل بفضة أخرى وراء البصر. فلذلك يكذب به

(٩٧) حديث إن آخر من يخرج من النار يحصى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف: متفق عليه من حديث ابن مسعود.

والمصير للكل إليه ، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين . ولذلك قال تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذُ الْمُخْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (١٠٢) فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون ، قد انقلبت وجوههم إلى أفقيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ، ولم يهده طريقه ، فعوذ بالله من الضلال ، والنزول إلى منازل الجهال .

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر . ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة ، فلا ينفع إلا في عالم الملك ، فيدفع السيف عن رقبته ، وأيدي الغائبين عن ماله . ومدة الرقبة والمال مدة الحياة . فحيث لا تبقى رقبة ولا مال ، لا ينفع القول باللسان . وإنما ينفع الصلح في التوحيد . وكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه ، إذ لا يرى الوسائط ، وإنما يرى سبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال (١٠٣) « أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ » وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها . ففى الأثر أن العبد ليوقف بين يدين الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، ولو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض

(١٠٢) السجدة : ١٢

(١٠٣) حديث أخرجوا من النار في قلبه مثقال دينار من إيمان — الحديث تقدم

هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقتضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : يا ربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقي طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتكم على سبيل . وصكوا له صكاً إلى النار . وكما يهلك هو بسبب غيره بطريق القصاص . فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به . وقد مكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال : وغيره : ذنوب إخواني من حسناتي ، أريد أن أزين بها صحيفتي .

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العبد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب . وماهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ضئ يعيب في أحوال . ولكن قد تنوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس في قوة البشر الوقوف على دبرها ، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة هما أسباب خفية ، ليس في قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا ، وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التى لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المصطع وإن كثرت مآثره الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى في القلب . وهو أعمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً ، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

التعبير عنه في هذا العالم . فهو الذى أجمله قوله تعالى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١١٠) وقوله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الخور ، والقصور ، والفاكهة واللبن ، والعسل والخمر ، والحلى والأساور ، فإنهم لا يحرصون عليها ، ولو أعطوها لم يقنعوا بها . ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، فهى غاية السعادات ، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك في الجنة ؟ فقالت الجارم الدار . فهو لاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شئ سواه ، حتى عن أنفسهم . ومثال العاشق المستهتر بمعشوقه ، المسترقى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه

في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه . ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره ، وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لالنفسه ولا غير نفسه . وهذه الحالة هى التى توصل في الآخرة إلى قررة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه ، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ، ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته ، فالدنيا حجاب على التحقيق ، ورفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون .

فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه .



الفصل الرابع بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم (١١١) ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو من أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع من الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة . يؤثر . ولذلك قال رسول الله ﷺ « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » . لأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكبر المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب .

إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بعد من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر قلما يزن الزانى بغتة من غير ميلودة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة . فكذلك كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحق . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، وينفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمداً .

(١١١) تنصرم : تنقطع .

(١١٢) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل : منظر عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم .

استصغار الذنوب

ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من تنسبه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن تقور القلب عنه ، وكرهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة أثره به واستصغار يصدر عن الألف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمخذور تسويده بالسفاهات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة . وقد تجاء في الخبر (١١٣) « الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذَبَابٍ مَرَّ عَلَى أُنْفِهِ فَأُطَارَهُ » .

وقال بعضهم : الذنب الذي لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عمله مثل هذا . وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة الهدية ، وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين . لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين . وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصفائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

(١١٣) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه - الحديث : البخاري من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفاً ومرفوعاً .

السرور بالصغيرة

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والبهجة . واعتداد التمكن من ذلك نعمة . والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد مس . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه . كما يقول . أما رأيته كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر في مناظره . أما رأيته كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أحجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التجارة . أما رأيته كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبت في ماله ؟ وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر ، فإن الذنوب مهلكة ، وإذا دفع بها إليها ، وظفر الشيطان به في الحمل عليها ، فينبغي أن يكون في مصيبة وتأس بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . قلربض الذي يصرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ، لا يرجو نفاؤه .

التهاون بستر الله وحلمه

ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدري أنه إنما يحل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً . فيظن أن تكفه من المعاصي عناية من الله تعالى به . فيكون ذلك لأمره من مكر الله ، وحيله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرَ ﴾ (١١٦) .

(١١٤) التبيح : الفخر .

(١١٥) مقارفته الذنوب : مباشرتها وتركها .

(١١٦) المجادلة : ٨ .

إعلان الذنب

ومنها أن يأتي الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه في مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله ^(١١٧) عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه ، أو أشهده فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وتبيئة الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفي الخبر ^(١١٨) « كُلُّ النَّاسِ مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيُكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين . ولذلك قال تعالى « **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** » ^(١١٩) وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه .

ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به . فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذته مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة . فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره

(١١٧) سدل الستر عليه : أرخاه وأرسله .

(١١٨) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين — الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمي وقد تقدم ..

والمجاهرون : المعلنون للمعصية .

(١١٩) التوبة : ٦٧ .

مستطيراً في العالم آماداً متطاولة . فتوفى لمن لم يات ذنبه معه . وفي الخبر ^(١٢٠) « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَزُرْ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً » قال تعالى « **وَتَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** » ^(١٢١) والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعس .

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأنبياء ، بل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفي الإسرائيليين أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل في الإصلاح دهرًا . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبين لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار ؟ فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، فعليهم وظيفتان إحداها : ترك الذنب ، والأخرى إحقاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فترك التجميل والميل إلى الدنيا ، وقنع منها باليسير ومن غنام بالقوت ، ومن الكسوة بالخلق ، فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام . فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجميل ، مالت طباع من دونه إلى التشبه ، ولا يقدر على التجميل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الخطام من الحرام . وكون هو السبب في جميع ذلك . فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها ، إما بالريح ، وإما بالحسran : وهذا القدر كاف في تفاحش الذنوب التي التوبة توبة عنها .



(١٢٠) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها — الحديث : مسلم من حديث جرير ابن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .
(١٢١) يس : ١٢١

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها
إلى آخر العسر

- بيان شروط التوبة ودوامها .
- بيان كيفية تدارك ما مضى من المظالم .
- بيان طريق كل تائب في رد المظالم .
- بيان أقسام التائبين في دوام التوبة .
- بيان ما ينبغي أن يادر إليه التائب لا جرى عليه ذنب : إما عن قصد وشهوة غالبية ، أو عن إلمام بحكم الاتفاق .
- ثمرة التوبة .



الفصل الأول

بيان شروط التوبة ودوامها

تمهيد :

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا . وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام رقام . وتتامها علامة ، ولدوامها شروط . فلا بد من بيانها .

أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسأقي . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بغوات الحبوب وعلامته طول الحسرة ، والحزن ، وانسكاب الدمع ، وطول البكاء والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته ، طال عليه مصيبته وبكاؤه . وأى عزيز أغر عليه من نفسه ، وأى عقوبة أشد من النار ، وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً ، أن مرض ولده المريض لا يبرأ ، وأنه سيموت منه ؛ لظال في الحال حزين . فليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى ، والتعرض بها للنار . فإلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلازمة صحة

الندم رقة القلب ، وغزارة الدمع . وفي الخبر ^(١٢٢) « جَالِسُوا التَّوَابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرْقُ أَفْقِدَ » .

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها ، فيستدل بالليل كراهية ، وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال : وعزق وجلالى ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته ، وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه . فإن قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها .

فأقول : من تناول عسلاً كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق ، واستلذه ، ثم مرض وطال مرضه والله ، وتناثر شعره ، وفلجت أعضاؤه ^(١٢٣) ، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ، وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضاً ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى ، متهاوناً بالذنوب ، مصراً عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغي أن يدوم إلى الموت . وينبغي أن يجد هذه المزاراة في جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد تناول السم في العسل النفة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار في كل ذنب .

(١٢٢) حديث جالسوا التوابين فإنهم أرق أفقده : لم أجده مرفوعاً وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضاً فالوعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضاً التائب أسرع دمنة وأرق قلباً .

(١٢٣) أصابها الفالج وهو داء يحدث في أحد شقي البدن فيعطل إحساسه وحركته (الشلل النصفي) .



الفصل الثار

بيان كيفية تدارك ما فات

وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالخال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضى ، وهو تدارك ما فرط . والمستقبل ، وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحبها فيما يتعلق بالماضى ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام . ويقتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونفساً نفساً . وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصي ما الذى قارفه منها .

كيفية التوبة من ترك الصلاة أو فسادها

فإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها في ترب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية . فيقتضيها عن آخرها . فإن شك في عدد ما فاتة . منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يتيقن أنه أداه ، ويقضى الباقى . ولو أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه عن سبيل التخرى والاجتهاد .

التوبة من ترك الصوم

وأما الصوم ، فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه ، أو أفطر عبداً ، أو نسي النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ، ويشغل بقضائه .

التوبة من ترك الزكاة

وأما الزكاة ، فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته . إن أداه لا على وجه يوافق مذهبه ، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، ولو أخرج البذل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول . ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

التوبة من ترك الحج

وأما الحج ، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج ، والآن قد أقبل فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس ، فعليه أن يكتسب من الحلال قنير الزاد . فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً . قال عليه السلام ^(١٢٤) « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحْجْ فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيٌّ وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيٌّ » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

التوبة من المعاصي

وأما المعاصي ، فيجب أن يقتش من أول بلوغه عن سمعه ، وبصره ولسانه ، وبطنه ، ويده ، ورجله ، وفرجه ، وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه ، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها .



(١٢٤) حديث من مات ولم يحج فليست إن شاء يهودياً — الحديث : تقدم في الحج .



الفصل الثالث

بيان طريق كل تائب في رد المظالم

المعاصي التي بين العبد وبين الله

فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم ، وقعود في مسجد مع حنابلة ، ومس مصحف بغير وضوء ، واعتقاد بدعة ، وشرب خمر وسماع كلامه ، وغير ذلك ما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عنه ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها . فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات « أخذاً من قوله ﷺ ^(١٢٥) « اتق الله حيث كنْتَ وأتبع السيئة الحسنة تمحها » بل من قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ^(١٢٦) فيكفر سماع الملاحى بسماع القرآن وبمجالس الذكر . ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاستغفار بالعبادة . ويكفر من المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه ، وكثرة ثقيله ، وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً . ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال ، وهو أطيب منه وأحب إليه . وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة . فإن المرض يعالج بضده . فكذلك ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية ، فلا يحجوها إلا بنور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات . فلذلك ينبغي أن تمحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها

(١٢٥) حديث اتق الله حيث كنْتَ واتبع السيئة الحسنة تمحها : الرمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوثق التوبة وتقدم في رحمة النفس .

(١٢٦) هود : ١٤١ .

فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة . وهذا التدرج والتحقيق من التلطف في طريق الحق فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواطىء على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في الحق فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكثر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها . والحنين إليها . فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذا القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الغموم . قال ^(١٢٧) « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الِهُمُومُ » وفي لفظ آخر « إِلَّا الِهُمُّ يَطْلُبُ الْمَعِيشَةَ » وفي حديث عائشة رضي الله عنها ^(١٢٨) « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تُكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكَفِّرُهَا أَذْخَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الِهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ » ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه . هو ظلمة الذنوب والهم بها . وشعور القلب بوقفه الحساب وهول المطلع . فإن قلت : هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه ، وهو خطيئة ، فكيف يكون كفارة ؟ .

فاعلم أن الحب له خطيئة ، والحرمان عنه كفارة . ولو تمتع به لثمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام في السجن ، فقال له : كيف تركت الشيخ الكتيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى . قال فما له عند الله ؟ قال أجر مائة شهيد فإذا الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله . فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .



(١٢٧) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفي لفظ آخر إلا الهم في طلب المعيشة : طس وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وتقدم في النكاح .
(١٢٨) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم : تقدم أيضاً في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة باللفظ المتأله الله بالخرن .

مظالم العباد

وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية عن حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلق منه من الله تعالى تداركه بالندم والتحسر ، وترك مثله في المستقبل ، والإتيان بمسئلات التي هي أضدادها . فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ويكفر غمب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغية والقدح بهم بالثناء على أهل الدين ، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه ، مثاله . ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء . إذا العبد مملوك لنفسه ، موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه . فممايل الإعدام بالإيجاد . وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المصادمة في التكفير والحق مشهود له في الشرع ، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة . ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ، ما لم يخرج عن مظالم العباد . ومظالم العباد ما في النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض . أما النفوس ، فإن جرى عليه قتل خطأ ، فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق ، إما منه أو من عاقلته . وهو في عهده ذلك قبل الوصول . وإن كان عمداً موجباً للقصاص فيالقصاص : فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ، ويحكمه في روحه ، فإن شاء عفا عنه ، وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء . وليس هذا كما لو زنى ، أو شرب ، أو سرق ، أو قطع الطريق ، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى ، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى . بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ، ويقوم حد الله على نفسه بأنواع محاسبة والتعذيب . فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين التاديب . فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد ، وقع موقعه ، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله

تعالى ، بدليل ما روى^(١٢٩) أن ماعز بن مالك ، أتى رسول الله ﷺ فقال :
يا رسول الله ، إني قد ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهرني . فرده .
فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زنيت . فرده الثانية . فلما
كان في الثالثة ، أمر به فحفر له حفرة ، ثم أمر به فرجم . فكان الناس فيه
فريقين . فقاتل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته . وقائل يقول ما توبة
أصدق من توبته . فقال رسول الله ﷺ « لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ
لَوَسِعَتْهُمْ »^(١٣٠) وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله ، إني قد زنيت
فطهرني . فردها . فلما كان من الغد قالت يا رسول الله ، لم تردني ؟ لعلك تريد
أن تردني كما رددت ما عزا . فوالله إني لحلي . فقال ﷺ « أَمَا الْآنَ فَأَذْهَبِي
حَتَّى تَضَعِي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة . فقالت هذا قد ولدته . قال
« أَذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطَمِيهِ » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسره
خبز ، فقالت يا نبي الله ، قد فطمته : وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل
من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . فأقبل
خالد ابن الوليد بحجر ، فرمى رأسها ، فتنضح الدم على وجهه ، فسبها . فسمع
رسول الله ﷺ سبه إياها فقال « مَهْلًا يَا خَالِدُ قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ
تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبٌ مَكْسَرٌ لَغَفِرَ لَهُ » ثم أمر بها فصل عليها ودفنت .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه . وإن
كان المتناول ما لا تناوله بغصب ، أو خيانة ، أو غبن في معاملة بنوع تلبيس ،
كترويج زائف ، أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجره أجبر ، أو منع أجرته ،
فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه ، بل من أول مدة وجوده . فإن
ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراج بعد البلوغ ، إن كان الولي قد

(١٢٩) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده ﷺ حتى اعترف أربعاً وقوله لقد تاب توبة — الحديث :
مسلم من حديث بريدة بن الحصب .
(١٣٠) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورحمها وقوله ﷺ لقد تاب توبة — الحديث : مسلم من
حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

قصر فيه ، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به ، إذ يمس في الحقوق المالية الصبي
والبالغ . وليحاسب نفسه على الحيات والدوائر من أول يوم حياته إلى يوم
توبته . قبل أن يحاسب في القيامة . وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه
في الدنيا طال في الآخرة حسابه . فإن حصل مجرم ، ما عليه بظن غالب ونوع
من الاجتهاد ممكن ، فليكتبه ، وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً ،
وليطف في نواحي العالم وليطالبهم ، وليستحلهم . أو ليؤد حقوقهم . وهذه
التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار ، فإنهم لا يسرون على طلب المعاملين
كلهم ، ولا على طلب ورثتهم . ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر
عليه . فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات ، حتى تفيض عنه
يوم القيامة ، فتؤخذ حسناته وتوضع في موازن أرباب المظالم ولتكن كثرة
حسناته بقدر كثرة مظالمه ، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب
المظالم ، فيهلك بسيئات غيره .

فهذا طريق كل تائب في رد المظالم . وهو يوجب استغراق العمر في
الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف ذلك مما لا يعرف ،
وربما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشمير الحسنات والوقت ضيق ،
أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات . هذا حكم المظالم
الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة . فليرد إلى مالك ما يعرف له مالاً معيناً .
وما لا يعرف له مالاً فعلياً أن يتصدق به . فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن
يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ، ويتصدق بذلك استدار كما سبق تفصيله في كتاب
الحلال والحرام . وأما الجناية على القلوب بمشافة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم
في الغيبة . فيطلب كل من تعرض له بلسانه ، أو أذى قلبه بفعل من أفعاله ،
وليستحل واحداً واحداً منهم . ومن مات أو غاب فقد فات أمره ، ولا يتدارك
إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً في القيامة . وأما من وجدته وأحله
بطيب قلب منه ، فذلك كفارته . وعليه أن يعرف قدر جنايته وتعرضه له .
فلا يستحلل المبهمة لا يكفي . وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب
نفسه بالإحلال ، وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته ، أو يحمله

من سيئاته . فإن كان في جملة جنائته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته ، كزناه بجاريته أو أهله ، أو نسيته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه . يعظم أذاهما شوقه به ، فقد انسد عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات ، كما يجبر مظلمة الميت والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سبقة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته ، وعرفه المجنى عليه . فلم تسمح نفسه بالاستحلال ، بقيت المظلمة عليه . فإن هذا حقه . فعليه أن يتلطف به ، ويسعى في مهماته وأغراضه ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه . فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسبقة مال بحسنة . فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، سمحت نفسه بالإحلال .. أئى إلا الإصرار ، فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته . التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته . ولكن قدر سعيه في فرجة . وسرور قلبه بتودده وتلطفه ، كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر ، أو زاد عليه . اخذ ذلك منه عوضاً في القيامة يحكم الله به عليه . كمن أتلف في الدنيا مالا ، فجاء بمثله ، فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء ، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أئى .

نجاة المرء برجحان ميزان حسناته

فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين ، أو أعدل المقسطين : وفي المتفق عليه من الصحيحين ، عن أنى سعيد الخدرى أن نبى الله ﷺ قال (١٣١) « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فُسِّلَ عَنْ أَغْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لُغِيَ رَأْسُهُ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَلَ بِهِ مِائَةٌ ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَغْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لُغِيَ عَلَى رَجُلٍ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ تَعْمُ وَمَنْ يَحُولُ

(١٣١) حديث أنى سعيد الخدرى المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أهل الأرض - الحديث : هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أنى سعيد .

يَتَنَّهُ وَيَتَنَّى التَّوْبَةُ يُطْلَقُ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ نَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَعْبَدَ اللَّهُ مَعَهُمْ وَلَا تُرْجَعُ إِلَى أَرْضِكَ قَائِلًا مِنْ سُوءٍ فَأُطْلِقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَالْخُصْمَتُ فِيهِ «حِكْمَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَدَرِ اللَّهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ فِي ضَرْبٍ أَدْمَى فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِسُومًا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِذَا أَنَّهُمَا كَانَا أَذْنَى فَهَوَّ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَتَبَسَّطَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » وفي رواية « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِيرٍ فَخَسَّ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية « فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاغِدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي وَقَالَ قِسُومًا مَا بَيْنَهُمَا فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَغَفَرَ لَهُ »

فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان حسنات ولو بمشقال ذرة . فلا بد للتائب من تكثير الحسنات . هذا حكم القدر المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال ، فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ، ويعاهده بعهد وثيق ، أن لا يعود إلى تلك الذنوب ، ولا إلى مثلها . كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً ، فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه . فإن هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يفسد أن تغلب الشهوة في ثاني الحال . ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال . ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة ، والصمت وقلة الكلام والنوم ، وإحراز قوت حلال . فإن كان له مال موروث حلال ، أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية ، فليقتصر عليه . فإن رأس المعاصي أكل الحرام . فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ! . ولا يكتفى بإحلال وترك الشك من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات . وقد قال بعضهم : من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار ، ثم يسل بها وفي آخر : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً .

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً، أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل. وما يحرم عليه، حتى يمكنه الاستقامة. وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغضب مثلاً، وليست هذه توبة مطلقة. وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح. وقال قائلون: تصح. ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل. بل نقول لمن قال لا تصح إن عنت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً، بل وجوده كعدمه، فما أعظم خطأك. فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب، وقتلها لسبب لقلتها. ونقول لمن قال تصح، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز، فهذا أيضاً خطأ. بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر. ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله.

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح. إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم، وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية، لا لكونها سرقة. ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية، فإن العلة شاملة لهما، إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين، لأن توجهه بفوات محبوه سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجه العبد بفوات محبوه، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا، فكيف يتوجه على البعض دون البعض، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحسوب من العبد إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر، فإذا استحال ذلك من حيث إن المعصية في الحمرين واحد، وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصور الندم على بعض المتأثرات فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح، لم يترتب عليه الثمرة وهو أى الملك. وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب

ما تركه، وثمره الندم تكفير ما سبق فترك السرقة. يكفر السرقة، بل الندم عليها. ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك مع جميع المعاصي.

وهو كلام مفهوم واقع، يستنتج المنصف عصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرين كبيرين. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر، فأمر ممكن. لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله، وأجلب لسخط الله ومقته. والصغائر أقرب إلى توب النسيان إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه. كالذي يجنى على أهل الملك وحرمة. ويجنى على دابته فيكون خائفاً من الجنابة على الرأس، مستحقراً للجنابة على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كبره بعيداً عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع. فقد كثر التائبون في الأمار الخالية، ولم يكن أحد منهم معصوماً. فلا تستدعي التوبة العصمة. والصب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه، بل وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر. فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهرته، ندم على أكل العسل دون السكر. الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن. لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل، والنهب، والظلم ومظالم العباد، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضاً ممكن، كما في توبة الكبائر والصغائر. لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبيها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري. فيحسب ترجح شرب الخمر عنده بيعت منه خوف، يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي. الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر، وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كأن يتوب عن الغيبة، أو عن

النظر إلى غير المحرم ، أو ما يجري مجراه ، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ، ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها ، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة ، فيكون الندم موجوداً ، ولكن لا يكون ملئاً بتحريك العزم ، ولا قوياً عليه . فإن سلم عن شهوة أقوى منه ، إن لم يعارضه إلا ما هو أضعف ، قهر الخوف الشهوة وغلبها ، وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمير ، فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغية ، وتلب الناس ، والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية ، فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ، بل يقول هذا الفاسق في نفسه . إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي ، فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخصي العنان بالكلية ، بل أجاهده وبعض المعاصي ، فعسائي أغلبه ، فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى . ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ، ولقليل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت لله فاترك الفسق لله ، فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ، ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول . لله تعالى على أمران ، ولى على المخالفة فيها عقوبتان . وأنا ملئ في أحدهما بقهر الشيطان ، عاجز عنه في الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفطرته شهورى . فكيف لا يتصور هذا ، وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ، ولا سبب له إلا هذا . وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها . والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم ، والندم يورث العزم . وقد قال النبي ﷺ « التَّائِبُ تَوْبَةً » ولم يشترط الندم على كل ذنب . وقال « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » ولم يقل التائب من الذنوب كلها .

وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل : إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة ، لأنها متائلة في حق الشهوة ، وفي حق العرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ ، عدونها في اقتضاء السخط . ويتوب عن الكثير دون القليل ، لأن لكثرة الذنب تأثيراً في كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ، ويذهب بعض شهوته لله تعالى كالمرضى الذى حذره الطبيب الفاكهة ، فإنه قد يتناول قليلها ، ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لابد وأن يكون ما تاب عنه محالاً ما بقى عليه . إما في شدة المعصية وأما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاضل في اعتقاد التائب ، تصور اختلاف حاله في الخوف والندم . فيتصور اختلاف حاله في الترك . فقدمه على ذلك الذنب ، ووقاؤه بعزمه على الترك يلحقه ثم لم يذنب ، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت من تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا . لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله . وما لا يقدر على منه فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه . ولكن أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه ، وثار منه احتراق ، وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلب ، فإن أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه ، وما حيا عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ، ومات عقيب التوبة ، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيح فيها الشهوة . وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده . فإذا لا استحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه . فإن كل من لا يشتبه شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأذى خوف . والله حال مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تمنحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر

شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة . ولولا هذا لقلنا إن الشهوة لا تقبل ما لم يعيش التائب بعد التوبة مدة ، بجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة . وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً . فإن قلت : إذا فرضنا تائبين ، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب ، والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها . فأيهما أفضل ؟ .

فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه . فقال أحمد بن أبي الحارث وأصحاب أبي سليمان الداراني : إن المجاهد أفضل ، لأن مع التوبة فضل الجهاد . وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل ، لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضه الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان .

إحدهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهدة أفضل من هذا . إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه ، واستيلاء دينه على شهوته ، فهو دليل قاطع على قوة اليقين ، وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين ، وتقمع الشهوة المنبئة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً . وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب ، فهذا صحيح ولكن استعمل لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل ، العنيد أفضل من الفحل ، لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ ، لأنه أسلم . والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه ، لأن المفلس لا عدو له ، والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات . وهذا كلام رجل سليم القلب ، قاصر النظر على الظواهر ، غير عالم بأن العز في الأخطار ، وأن العلو شرطه اقتحام الأغوار . بل هو كقول القائل : الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب ، أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه ،

فتتكسر أعضائه عند السقوط على الأرض . وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه . وهذا خطأ بل صاحب الدين والكلب إذا كان قوياً عائلاً بطريق تأديبهما أعلى رتبة أخرى يدرك سعد الصيد .

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة . إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة ، حتى تأديت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين . وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعه . وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد في جهاد ليس مقصوداً لعيه . بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستحوذ إلى شهواته ، وإن عجز عن استجراكه فلا يصدك عن سلوك طريق الدبر . فإذا قهرته وحصلت المقصود ، فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة ، فأنت بمنى طلب الظفر . ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه ، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ، ولا يدري كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكسب الضراوة والفرس الجماع ، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد . ولقد زل في هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يسموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق ، وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه ، فقال هذا محال فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة ، واسترسل في اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات . فإن قلت : فما قولك في تائبين ، أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه ، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق تدماً عليه . فأيهما أفضل ؟ .

أيهما أفضل ؟

فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه . فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب

ذنبك بين عينيك وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذهبيين عندنا حق ، ولكن بالإضافة إلى حالين . وكلام المتصوفة أبدأ يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى المهمة والإرادة والجد ، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه ، لا يهمه أمر غيره . إذ طريقه إلى الله نفسه . ومنازلة أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم . فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدي سبيلاً ، مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه ، كمال في حق المبتدئ ، لأنه إذا نسى لم يكثر احتراقه ، فلا تقوى إرادته واتباعه لسلوك الطريق . ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان . فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك . فإن ظهر له مبادئ الوصول ، وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب ، استغرقه ذلك ، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله ، وهو الكمال ، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز ، طال تعب المسافر في عبوره مدة ، من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل . فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره ، يبكي مناسفاً على تخريبه الجسر ، كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل ، بأن كان قليلاً فتعذر السلوك ، أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها ، فليظل بالليل بكاءه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ، فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق ، والمقصد ، والعائق ، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم ، وفي ربيع المهلكات . بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في

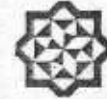
النعم في الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شاعراً ، فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخور والقصور . فإنه ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغي أن يفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له في الدنيا فذلك تذكر الذنب قد يكون محرراً للشهوة . فالمبتدئ أيضاً قد يستضر به . يكون النسيان أفضل له عند ذلك .

ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يخفى من بكاء داود ونياحه عليه السلام . فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس غاية العوجاج ، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات الثلاثة بأمرهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التمس بما تنتفع بهم مشامتة ، وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم . فلقد كان في الشيوخ من لا يشر على مريديه بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستغنياً عنها لقمه به عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلاً للأمر على المريد . ولذلك قال عليه السلام : «أما إني لا أنسى ولكني لأشرع» وفي لفظ «إنما أسهر لأمر» .

ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي ، كما قال عليه السلام (١٣٣) للحسن «كنح كنح» لما أخذ من تمر الصدقة ووضعها في فيه . وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه الشمرة إنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقته ،

(١٣٢) حديث أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع : ذكره ابن بلاغاً غير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسل لا إسناد له وكذا قال حمزة الكندي إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنطاقي وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه اللأمة والحفاظ عم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعي بعض طلبة الحديث أنه وقع له مستند .
(١٣٣) حديث أنه قال للحسن كنح كنح : أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه : البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام .

ترك الفصاحة ونزل إلى لكتته^(١٣٤). بل الذي يعلم شاة أو طائرًا، يصوت به رغاء^(١٣٥) أو صغيرًا تشبيهاً بالبهيمة والطائر، تلطفاً في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن العافلين، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.



الفصل الرابع أقسام العباد في درام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات

توبة ذى النفس المطمئنة

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستنه على التوبة إلى آخر عمره. فيندرك ما فرط^(١٣٦) من أمره. ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة التوبة. فهذا هو الاستقامة على التوبة. وصاحبة هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات. واسم هذه التوبة التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية. هؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ^(١٣٧) «سَيِّئُ الْمَفْرُودُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ قَوَّرَدُوا الْقِيَامَةَ خَفَافًا». فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث السروع إلى الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة، ففتر نزعها، ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس، ولكنه ملي بمجاهدتها وردّها.

(١٣٦) فرط سبق والفراط السابق.

(١٣٧) حديث سبق المفردون المستهترون يذكّر الله - الحديث: الترمذى من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم.

(١٣٤) اللكنة: العنق وثقل اللسان والعجمة والمعجز عن الفصاحة والبيان.

(١٣٥) الرغاء: صوت البعير، والنعام والضبع وقصف الرعد، وبكاء الصبي الشديد، والمقصود: الصوت.

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر. من مختطف يموت قريباً من توبته، يغط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن مهمل طال جهاده وصبره، وتمادت استقامته وكثرت حسناته، وحال هذا أعلى وأفضل، إذ كل سيرة فإيما تمحوها حسنة، حتى قال بعض العلماء. إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات، مع صدق الشهوة، ثم يصبر عنه، ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى. واشتراط هذا بعيد، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق، فتبيح الشهوة، وتحضر الأسباب حتى يتمكن، ثم يطمع في الانكشاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره، فيقدم على المعصية، وينقض توبته. بل طريقها الفرار. من ابتداء أسبابه الميسره له، حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه. فبه تسلم توبته في الإبتداء.

توبة ذى النفس اللوامة

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبار الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يتلى بها في مجارى أحواله. من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها. ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد. وهذه أيضاً رتبة عالية، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى: وهي أغلب أحوال التائبين. لأن الشر معجون بطينة آدمى كلما ينفك عنه. وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يتقل ميزانه، فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات، فذلك في

غاية البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى، إذ قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَايِرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّصَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (١٣٨).

فكل إمام يقع بصغيرة، لا عن توطئ نفسه عليه، فهو جدير بأن يكون من اللصم المغفور عنه. قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (١٣٩) فأنشروا عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه رتبة الإشارة بقول عليه السلام، فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه (١٤٠) «خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ» وفي خبر آخر (١٤١) «الْمُؤْمِنُ كَالسَّبِيلَةِ يَقِيءُ أَحْيَانًا وَهِيَ أَحْيَانًا» وفي الخبر (١٤٢) «لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الْقَيْتَةُ بَعْدَ الْقَيْتَةِ» أى الحين بعد الحين.

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درعة التائبين، كالطبيب الذى يؤيس الصحيح من دوام الصحة، بما يتناوله من العواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى، من غير مداومة واستمرار. وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء، بفتوره عن التكرار والتعلم في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات، لا يتفق لهم من فترات ومقارفة السيئات المختطقات. قال النسي عليه السلام (١٤٣) «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءُونَ وَخَيْرُ

(١٣٨) (١٣٩) (١٤٠) (١٤١) (١٤٢)

البحر: ٣٢

(١٤٠) حديث على خياركم كل مفتن تواب في البيهقي في الشعب بسند ضعيف.
(١٤١) حديث المؤمن كالسبيلة يقيء أحياناً وتقبل أحياناً أو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والضرياني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن وكلها ضعيفة وقالوا تقدم بدل تقيء وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد حديث أنس.
(١٤٢) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه القية بعد القية الطبراني: والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة.
(١٤٣) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون: الترمذي واستغفره الحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون. قلت فيه من بن مسعدة ضعفه البخارى.

الْخَطَّائِينَ التَّوَّابِينَ الْمُسْتَغْفِرُونَ ۝ قَالَ أَيْضاً ^(١٤٤) «الْمُؤْمِنُ وَإِذَا رَاقَعَ فَجَبْرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقَبَةٍ ۝ أَيْ وَاهِ بِالذُّنُوبِ ، رَاقِعٌ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ^(١٤٥) فَمَا وَصَفَهُمْ بِعَدَمِ السَّيِّئَةِ أَصلاً .

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم يغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة .
الآ أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها ، وكفاه شرها . هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول . ليتني لم أفعله ، وسأتوب عنه . وأجاهد نفسي في قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى . ويوماً بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة . وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وآخَرُونَ اغْتَرَفُوا بِلَذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ (١٤٦) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث تمويهه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيعة . فإن تداركه الله بفضلته وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة . التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يخفق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء في حقه . وإذا يسرت له أسباب المواظبة على

راقع : اُی یہی دینہ بمعصیتہ و ہر فعه بشوبہ من رفعت الثوب إذا رمتہ .

11A

فإذا الخوف من الخاتمة قبل الشوية . وكل نفس فهو خاتمة ما قبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع في المخنور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحمير .

الطبقة الثانية: أن يتوب ويجري مدة على لاستقامة، ثم يعود إلى مقارنة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله. بل ينهك إتهامك الغافل في اتباع شهرته. فهذا من جملة المصريين. وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير. ويخاف على هذا سوء

الخاتمة، وأمره في مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء على شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده ، وإن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد لو جاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز في المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من اتجر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالتاجر كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعالمون كلهم محرومون إلا المخلصون ؛ والمخلصون على خطر عظيم .

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله ، وترك نفسه وعياله جوعاً ، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب ، يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدوة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يعد عند أرباب القلوب من المعتهين .

والعجب من عقل هذا المعته ، وتروجه حماقته في صيغة حسنة ، إذ يقول : إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثل ، ومعصيتي ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار في طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحسب يستحق قائل هذا الكلام ويستبرئ به ، ويقول ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإنما يتال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تدبيل لسنة الله . ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن

سنته لا تبدل لها فيها جميعاً . والله قد أخبر في قال ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾^(١٤٩) فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والتعم الدائم ، وأن لك بحكم الكرم يعطيه عن غير جهد في الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا . وينسى قوله تعالى ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَهَ تَوْعَدُونَ ﴾^(١٥٠) .

فنعوذ بالله من العمى والضلال . فبما إلا انتكاس على أم الرأس ، وانغماس في ظلمات الجهل . وصاحب هذا حدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾^(١٥١) أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾^(١٥٢) فارجعنا سعي . وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ، ويحق عليه العذاب . فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة إلى سوء الثقل والمآب .



(١٤٩) النجم : ٣٩

(١٥٠) الداريات : ٢٢

(١٥١) السجدة : ١٢



الفصل الخامس

بيان ما ينبغي أن يادر إليه التائب
إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبية
أو عن إمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة، والندم، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده، كما ذكرنا طريقه. فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب، وإما باللسان وإما بالجوارح. ولكن الحسنات في محل السيئة، وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب، فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل لتذلل العبد الآبق، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد، وذلك ينقصان كبره فيما بينهم. فما للبعد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد. وكذلك يضمم بقلبه الخيرات للمسلمين، والعزم على الطاعات.

وأما اللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فأغفر لي ذنوبي وكذلك يكثّر من ضروب الاستغفار، كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار.

وأما الجوارح، فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات. وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثانية أعمال كان العفو عنه مرجواً. أربعة من

أعمال القلوب، وهي التوبة أو العزم على التوبة، وحب الإفلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له، وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى سبعين مرة، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تصدق بصدقه وتصرم يوماً. وفي بعض الآثار^(١٥٢): تسبغ الوضوء، وتدخل المسجد، تصلي ركعتين.

وفي بعض الأخبار^(١٥٣): تصلي أربع ركعات. وفي الخبر^(١٥٤): «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتَيْتُهَا حَسَنَةً تَكْفَرُهَا السَّرُّ بِالسَّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ» ولذلك قيل: صدقه السر تكفر ذنوب الليل. وصدقه الجهر تكفر ذنوب النهار.

وفي الخبر الصحيح^(١٥٥) أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ، إني عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس. فاقض عني بحكم الله تعالى. فقال ﷺ: «أَوْ مَا صَلَّيْتَ مَعَنَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ» قال بلى. فقال ﷺ: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة. إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ»

(١٥٢) الثامن من مكفريات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين: أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبيد يذنب ذنباً محسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي.

(١٥٣) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات: ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يجرى امرأة - الحديث: وفيه فيما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدية فقام نادماً فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرق النهار الآية واستاده جيد.

(١٥٤) حديث إذا عملت سيئة فأتيتها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية: البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية معاذ بن يسار عن معاذ ولم يلفظ وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر - الحديث.

(١٥٥) حديث أن رجلاً قال يا رسول الله إني عجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس - الحديث: في نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم - الحديث.

إِلَّا الْكَبَائِرَ .

فعل الأحوال كلها ، ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ، ويجمع سيئاته ، و يهد في دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر ^(١٥٦) « الْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِءِ بِآيَاتِ اللَّهِ » وكان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكاذبين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير .

استغفار العبد أمان له

فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ ، فقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ^(١٥٧) فكان بعض الصحابة ^(١٥٨) يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما . وهو كون الرسول فينا ، وبقي الاستغفار معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذي هو توبة الكاذبين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتأثر به

(١٥٦) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله : ابن أبي الدنيا في التوبة من طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه رسله ضعيف .

(١٥٧) الأنفال : ٣٣ .

(١٥٨) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه أنزل الله على أمانين — الحديث . وضعف . وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس .

قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان . لا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وانتهاله في سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة في نفسه . فتصلح لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار . حتى قال ﷺ ^(١٥٩) « مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ بَعَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وإن لم لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لا بد لعمري في كل حال من مولاه . فأحسن أحواله أن يرجع إليه كل شيء : فإن عصي في بارب استر على . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي . فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل مني .

وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكف الذنوب فقال . أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يتم الخلق ثم يستغفر الله من قصيره الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الشاء . ثم البيان ، ثم الفكر ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم المولاه ثم محادثة السر ، وهو الخلوة . ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العزم خذاه ، والدور قوامه . والرضا زاده ، والتوكل صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش . فيكون مقامه مقام حملة العرش .

وسئل أيضاً عن قوله ﷺ « الثَّابِتُ حَبِيبُ اللَّهِ » فقال : إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى ﴿ الثَّابِتُ الْغَابِذُونَ ﴾ ^(١٦٠) الآية — وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حب .

(١٥٩) حديث ما أصر من استغفر — الحديث : تقدم في دعوات .

(١٦٠) التوبة : ١١٢ .

ثمرة التوبة

والمقصود أن للتوبة ثمرتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيباً . وللتكفير أيضاً درجات : فبعضه نحو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بقاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس يخلو عن الفائدة أصلاً . فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ، أن قول الله تعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (١٦١) صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو حلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يشغل فترفع كفة لسيئات . فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط ، وما وقع ذلك في الثياب ؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة .

فلذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً . بل أقول الاستغفار باللسان أيضاً حسنة . إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه . فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أنى عثمان المغربي : إن

(١٦١) الزلزال : ٧

لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن . فبني غافل ، فقال : اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك في الخير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق . فإن عود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذ سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما توعد فعل : استغفر الله . ومن تعود الفضول ، سبق لسانه إلى قول : ما أحقك ، وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من تدير ، قال بحكم سبق اللسان . نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنة الله . فبعضي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه خير وهو من جملة معاني قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٦٢) . ومعاني قوله تعالى ﴿ وَبِذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَلِيمَاتِ ﴾ (١٦٣) . فأنظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات . وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات ، فتفتقر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان ببعته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات .

أما السابق : فقال صدقت يا ملعون ، ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأراغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه .

(١٦٢) التوبة : ١٢٠

(١٦٣) النساء : ٤٠

وأما الظالم المغرور، فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر، فأسعف الشيطان، وتدلى بحبل غروره، فثبت بينهما المشاركة والموافقة. كما قيل: وافق شن طبقه، وافقه فاعتقه.

وأما المقتصد، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل، وتفتن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب. ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً. والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً. والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مذمة الحياكة، ولكن الحائك مدموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس. فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تدم غفلة القلب. فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه. فإن سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً. احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد.

فهكذا ينبغي أن تفهم دم ما يلزم، وحمد ما يحمد، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنت الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة. بل ينبغي أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً، فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا منها شيئاً، فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عبادته، فلا تحقروا منهم أحداً، فلعله ولي الله تعالى. وزاد خبأ إجابته في دعائه، فلا تركوا الدعاء، فرمما كانت الإجابة فيه.

الركن الرابع

في دواء التوبة، وطريق العلاج
حل عقدة الإصرار

- تمهيد.
- طلب العلماء أول علاج العاصين وهو الركن الأول.
- الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار.
- الركن الثاني في العلاج: الصبر.
- أسباب الوقوع في الذنوب.
- علاج الأسباب الموجبة للإصرار.



تمهيد

اعلم أن الناس قسمان :

القسم الأول : شاب لا صبوة له ، نشأ على حير واجتناب اتسر ، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ (١٦٤) **وَتَعْجَبُ مِنْ مَنْ شَابَ لَيْسَتْ لَهُ صَبَوَةٌ** وهذا عزيز نادر .

والقسم الثاني : هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مُصَيِّرِينَ وإلى تَائِبِينَ . وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة سبب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفع ، يطاله . ولا يظل الشيء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب محركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٦٥) فلا دواء إذا للتوبة إلا معجون يُعَجِّنُ من حلاوة العلم ، ومرارة الصبر . وكما يجمع السكتنجين (١٦٦) بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج مجموعهما ، فيجمع الأسباب

(١٦٤) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة : أحمد والطبراني من حديث عتبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

(١٦٦) خليط من العسل والخل .

• ليست له صبوة : أي ميل إلى هوى .
(١٦٥) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

المهيضة للصغراء ، فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذا لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولا بد من بيانها .



الفصل الأول

طلب العلماء

أول علاج العاصين والأصل الأول

فإن قلت اينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ . فاعلم أن العلوم بحملتها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة . ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . نتذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :

الإيمان بأصل الشرع

يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار ، على رتبة مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويتيق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة ، وللشقاوة سبباً هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الوثوق بالرسول ﷺ

الثاني : أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب . حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يَلْس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان . ووازنه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول ﷺ ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف .

الإصغاء إلى وعد الله وتحذيره

الثالث : أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتواء فتكون سدة الخوف باعثة له على الاحتواء ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الفجور ، والتصديق بجميع ما يبقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترافة^(١٦٧) ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذي هو الركن الآخر في العلاج .

طلب العلم ونشره

الرابع : أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه في نفسه الاحتواء عنه ، ليُعرفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، ومأكوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتواء عن كل شيء ، ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص ، ووزنه من الدين أن كل عبد قليس يتنلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب

(١٦٧) الاسترافة : الوقوع في الريبة .

مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة . إنما حاجته في حال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بافاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكثير ما سبق بها . فهذه علوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . معاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يحمل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة ، أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . بهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويصلون واحداً واحداً فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه ما لم يُعرفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة^(١٦٨) .

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالاً ، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى . إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكشف شره ، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمى ، أو الذي غلب عليه الجنون ، إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ، ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

أكثرية مرض القلوب على مرض الأبدان

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل :

(١٦٨) إذا قام به واحد منهم لا يستقط عن الآخرين .

إحدهما : أن المريض به لا يدري أنه مريض .

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطباع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد في هذا العالم ، فقلت الثمرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ؛ فلذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ، ويجهل في علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار^(١٦٩) مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدرُوا على تحذير الخلق منه ، استكفافاً من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا ، وإذا لم يصلحوا لم يُفسدوا . وليتهم سكتوا وما تطلقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ، ويستميل قلوبهم . ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألد في الأسماع ، وأخف على الطباع . فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد حراسة على المعاصي ، ومزيد ثقة بفضل الله . ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً ، أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواءان ، ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه ما لا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر سورة إسراره في الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

(١٦٩) جمع غصر ، وهو الزمن .

وكذلك المصير على الذنوب ، المشتى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعطاماً لذنوبه التي سقت ، يعشج أيضاً بأسباب الرجاء ، حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب .

فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهي معالجة المغرور بالعسل طلباً للشفاء . وذلك من ذاب الجهال والأغنياء . فإذا فساد الأطباء هي المعضلة الزباء^(١٧٠) التي لا تقبل الدواء أصلاً .

طريق الوعظ

فإن قلت : فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاءه .. نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهي أربعة أنواع .



(١٧٠) من الدواهي الشديدة . كما في القاموس .



الفصل الثاني

الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار

ذكر الآيات والأخبار المخوفة

الأول : أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار . مثل قوله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةٌ غَابَتْ شَفَقُهَا إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَرَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَا لَيْتَ هَذَا الْخَلْقُ لَمْ يَخْلُقُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَمِلُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَمِلُوا » وفي بعض الروايات « لَيْتَهُمْ تَجَالَسُوا فَتَدَاكُرُوا مَا عَمِلُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا عَمِلُوا تَابُوا مِمَّا عَمِلُوا » .

وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف . ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً (١٧٢) فيقول الله تعالى للأرض والسماء : « كُفَا عَنْ عَبْدِي »

(١٧١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا ومَلَكَانِ يَتَجَاوَرَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَا لَيْتَ هَذَا الْخَلْقُ لَمْ يَخْلُقُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَمِلُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَمِلُوا تَابُوا مِمَّا عَمِلُوا » . وفيه لست الخلاق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث :

(١٧٢) جمع كسفة وهي القطعة .

وأمهلاه فإنكما لم تخلقا . ولو خلقتاه لرحمتاه . وأعله يتوب إلى فأغفر له . ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات . فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنَّ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١٧٣) .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٧٤) « الطَّائِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتَهَكَتِ الْحُرُمَاتُ وَاسْتَحَلَّتِ الْمَمَرُ أُرْسِلَ اللَّهُ الطَّائِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا » وفي حديث مجاهد (١٧٥) « الْقَلْبُ مِثْلُ الْكَفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا انْتَبَحَثَ أَصْبَعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيَسُدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصي معلوماً ، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه ، فلم يوفقه بعدها لخير .

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى . فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ (١٧٦) ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً ، إنما خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه .



(١٧٣) قاطر : ٤١ .

(١٧٤) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات — الحديث : ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو مكرر .

(١٧٥) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال بعض في حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روي في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة :

(١٧٦) حديث أنه ﷺ ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة : البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً وفي حديث أبي البرداء أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم — الحديث : وقد تقدم في العلم .

ذكر حكايات ذنوب الأنبياء والأولياء

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المضائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق .

مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه ، وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحُلل ^(١٧٧) عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودي من فوق العرش . اعبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصائي . قال فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب .

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عُبد في داره أربعين يوماً ، وقيل لأن المرأة سأله أن يحكم لأبيها قال نعم ولم يفعل . وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانتها منه ، فسلب ملكه أربعين يوماً ، فهرب تائهاً على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعموني فأبى سليمان بن داود شج ، وطرده ، وضرب ، وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطرده وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الخوت ، فليسه بعد انقضاء الأربعين : أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان يجئ عليه . فقال لا أؤمكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم في عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه .

(١٧٧) حُلل جمع حلة . وهي الملابس التي يتحل بها الإنسان ويستتر .

وروى في الإسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاءها واستعصم . قال فنبأه الله ببركة تقواه ، فكان نبياً في بني إسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر عليه السلام . بم أطلعك الله على سم الغيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى .

وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديداً ، فكأنه أعجبه . قال فوضعت الريح . فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت : إنما نظيتك إذا أطعت الله .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا . قال : أقولك إخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترئسي ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ أو تدري لم رددته إليك ؟ قال : لا . قال : لأنك رجوتني وقلت : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ ^(١٧٨) وبما قلت : ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا ﴾ ^(١٧٩) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ^(١٨٠) قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْسَأَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ^(١٨١) . وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأسياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ! نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضاً مما ينبغي أن يذكر جنسه على أسماع المصرين ، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

(١٧٩) يوسف : ٨٧

(١٨١) يوسف : ٤٢

(١٧٨) يوسف : ٨٣

(١٨٠) يوسف : ٤٢

ذكر تعجيل عقوبة الذنوب في الدنيا

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته . فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله . فيبغى أن يخوف به . فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر . كما حكى في قصي داود وسليمان عليهما السلام . حتى أن قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال عليه السلام (١٨٢) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَحْرُمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » وقال ابن مسعود . إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب بصييه وهو معنى قوله عليه السلام (١٨٣) « مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سواداً في الوجه ، ونقصاً في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال . لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير ، ويغفر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المتكرين للذنوب ، ومن مجالسة الصالحين . بل يمقتة الله تعالى ليمقتة الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه ، محتزراً زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوق الذنوب ويحبها ، حتى يقع في ذنب وذنوب ، فعندما يخوض في الذنوب خوفاً . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ،

(١٨٢) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب بصييه : ابن ماجه والحاكم وصححه اسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث توبان .

(١٨٣) حديث من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً : تقدم .

فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه . فوقفت أنظر إليه ، فمررت إلى ابن الجلاء الدمشقي ، فأخذ يدي فاستحييت . فقلت يا أبا عبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت النار . فغمز يدي وقال : لتحسب عقوبتها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الساراني : الاختلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا يذنب يذنبه . وفي الخبر (١٨٤) « مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ قَبْلَ مَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ » وفي الخبر (١٨٥) « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَذْنِي مَا أَصْنَعُ بِالْعَبْدِ إِذَا أَثَرُ شَهْوَتِهِ عَلَى طَاعَتِي أَنْ أُخْرِقَهُ لِيَذِيذَ مُنَاجَاتِي » .

وحكى عن أبي عمرو بن عثمان في قصة يطول ذكرها . قال فيها : كنت قائماً ذات يوم أصلي ، فخرم قلبي هوى طاولته بفكرتي ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدي كله ، فاستترت في البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعان غسله في الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا سواداً ، حتى اتكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد ، وكان قد وجه إلي فأشخصني من الرقة . فلما أتيت قال لي : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائماً بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجت منك من بين يدي الله تعالى ؟ فتولاً إلى دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فعجبت كيف علم بذلك وهو بعيد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره ليتجر . وإن كان شقياً أخفى عنه حتى يهلك ويستوجب

(١٨٤) حديث ما أنكرتم من زمانكم قبل أنكرتم من أصلكم : البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيل وهو عبد الله بن هاشم . قلت هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواضيل .

(١٨٥) حديث يقول الله إن أذن ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه للذة مناجاتي : غريب لم أجده .

النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته . فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ، ويوفق لشكرها . وكل بلية كفارة لذنوبه ، وزيادة في درجاته .

ذكر حدود الذنوب والنفوس في الوجوه

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه . بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولاً بالنبض ، والسحنة^(١٨٦) ووجوده الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، ليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد : أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي . قال : « لَا تَغْضَبْ »^(١٨٧) وقال له آخر : أوصني يا رسول الله . فقال عليه السلام : « عَلَيْكَ بِالنَّاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْغَنَى وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعُ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلِّ صَلَاةَ مُؤَذَّعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُغْتَدَّرُ مِنْهُ » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني فقال : أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة . قال وكيف لي بذلك ؟ قال الزم الزهد في الدنيا . فكانه ﷺ توسم في السائل الأول مخايل الغضب فيها عنه . وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على

(١٨٦) السحنة : الهيئة واللون وهي بفتحين أو بفتح فسكون .

(١٨٧) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال لا تغضب : تقدم .

(١٨٨) حديث قال له آخر أوصني قال عليك بالناس — الحديث : ابن ماجه وقد تقدم .

الدنيا . وقال رجل لمعاذ أوصني . فقال : كن . حيماً أكن لك بالجنة زعيماً . فكانه تفرس فيه آثار الفضاظة والغلظة وقال رجل لإبراهيم بن أدهم . أوصني . فقال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا . من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقي الناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا في ماء اليأس . فكانه تفرس فيه آفة المخالطة . وأخير عما كان هو الغالب على حاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبني كتاباً توصيني فيه ولا تكثري . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك . أما بعد ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول^(١٨٩) : « مَنِ اتَّمَسَ رِضَا اللَّهِ سَخَطَ النَّاسَ كَفَاءَ اللَّهِ مَوْتَهُ النَّاسِ وَمَنِ اتَّمَسَ سَخَطَ اللَّهِ بَرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ، فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصدددها ، وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفأك الناس ، وإذا اتقت الناس لم يغفوا عنك من الله شيئاً والسلام .

فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ، وتوسم الأحوال اللاتقة ، ليكون اشتغاله بالمهم . فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن النوع في تضييع زمان .

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم في جمع . أو سألته من لا يدري باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة المخلوق في الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن في علوم

(١٨٩) حديث عائشة من اتهم رضا الناس سخط الله وكنه الله إلى الناس — الحديث : الترمذي والجامع

وفي مسند الترمذي من لم يسم .

الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري . أوصني . قال : عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض ، وذكر لك في أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني . فقال . أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يا بني ، زاحم العلماء بركبتك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لأخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً^(١٩٠) ، وعلى أعناق الرجال كلاً^(١٩١) ، وصم صوماً يكسر شهوتك ، ولا تصم صوماً يضر بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفه ، ولا تخالط ذا الوجهين وقال أيضاً لابنه . يا بني ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب^(١٩٢) ، ولا تسأل عما لا يعنك ، ولا تضع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني ، إن من يرحم يرحم ، ومن يضمن يسلم ، ومن يقل الخير يغم ، ومن يقل الشر يأنم ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال رجل لأبي حازم أوصني . فقال كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت غنيمة فالزمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه .

وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني ، فقال : كن بساماً ولا تكن غصاًباً . وكن نقاعاً ولا تكن ضراراً ، وانزع عن اللجاجة^(١٩٣) ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطائين بخطاياهم ، وأبك على خطيئتك يا بن عمران .

(١٩٠) أي عائلة على غيرك .
(١٩٢) أرب : مقصد وميد ومصلحة وحاجة .
(١٩٣) يمش : نزع عن كذا انتهى عنه .
واللجاجة : الحمادى في الخصومة

وقال رجل لحمد بن كرام أوصني . فقد : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك .

وقال رجل لحامد اللفاف أوصني . فقد : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . وقال رجل لحامد اللفاف أوصني . فقال : اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . قال وما غلاف الدين ؟ قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ، فخف مما خوفك الله ، واحذر مما حذر الله ، وخذ مما في يديك لما بين يديك ، فمعد الموت يأتيك الخير اليقين والسلام .

وكتب عبد بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه أما بعد ، فإن المول الأعظم والأمور المفطعات مامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجح ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ، ومن آمن اعتبر ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زلت فارجع ، وإذا دمت فاقبل وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك .

وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده . فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه . يصير على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدي بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله . فأما أوليائه فغتهم . وأما أعداؤه فغرتهم .



الفصل الثالث

الركن الثاني في العلاج الصبر

الأصل الثاني : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما يتناول ذلك إما لعفته عن مصرتة ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الحنة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس .

وحاصله أن المريض إذا اشتد سراوته لمأكول مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلل عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره . ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه . فلا بد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي . كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتبه بالنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكير فيه تمام الفهم ويسع من تمامه لا محالة خوفاً وإذا قوى الخوف تسر بمعوته الصبر ، وابتعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله

وكتب أيضاً إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك . وأعلم أن الله عز وجل أخذ للمظلومين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لا يدري خصوص واقعته . فهذه للوعاظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انقسم باب الاعتاظ ، وغلبت المعاصي ، واستشرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً ، وينشدون أبحاثاً ، ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ، وينشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارهم ، ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مُدْبِرٌ ومتخلف . فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .





الفصل الرابع أسباب الوقوع في الذنوب

أحدها : أن العقاب الموعود غيبت ليس بخاضر . والنفس جيلت متأثرة بالخاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالخاضر .

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذة بالخلق . وقد قوى ذلك واستوى عليها بسبب الاعتياد والإلف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل خوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى : ﴿ أَكَلَا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ (١٩٤) وقال عز وجل : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١٩٥) وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَخُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَتَنْظُرْ إِلَيْهَا . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَحَفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ . ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَتَنْظُرْ . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَتَّقِيَ أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخُلِقَ الْجَنَّةُ . فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَتَنْظُرْ . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَفَّتْ بِالْمَكَارِهِ . ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَتَنْظُرْ إِلَيْهَا . فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ » . فإذا كون الشهوة مرهقة في

(١٩٤) القيامة : ٢٠

(١٩٥) الأعلى : ١٦

(١٩٦) حديث حلت الجنة بالمكاره - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(١٩٧) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها - الحديث : أبو داود والترمذي والحاكم

وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة .

وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى ، وانتظر الثواب ، وصدق بالحسنى ، فسيهره الله تعالى اليسرى . وأما من يخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسيهره الله للعسرى . فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهملاتك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإثبات الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكان من أصر على الذنب لم يُصِرْ عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوع في الذنب أمور .





الفصل الخامس

علاج الأسباب الموجبة للإصرار

الفكر الحقيقي دواء الوقوع في المعاصي :

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت آت ، وأن غداً للناظرين قريب ، وأن الموت قرب إلى كل أحد من شراك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتأخر إذ وقع صار ناجزاً . ويذكر نفسه أنه أبدأ في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال . إذ يركب البحار ، ويقاسي الأسفار ، لأجل الريح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخفف ما بعده ، ومفارقة الدنيا لا يد منها . فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عذمه أزلاً وأبداً ، فليظن كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه ، فيقول . كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي ، دون قول نصافي يدعي لطلب لنفسه بلا معجزة على طبه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا !

وهذا التفكير بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه . ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل ، فكيف أقدر على ذلك أهد الآباد ! وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ، فكيف أطيق ألم النار ! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتغصنها وامتزج صفوها

الحال ، وكون العقاب متأخر إلى المال ، سببان ظاهران في الاسترسال . مع حصول أصل الإيمان . فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذباً بأصل الطب ، ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهن عليه الألم المنتظر .

الثالث . أنه ما من مذهب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة ، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يستوف التوبة والتكفير . فمن حيث رجائه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان .

الرابع : أنه ما من مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى .

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان . نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه ، وهو كونه شاكاً في صدق الرسل ، وهذا من الكفر . كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض . فإن كان المخذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكديه أو يشك فيه ، فلا يبال به . فهذا هو الكفر .



بكدرها . فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صباح أهل النار من التسويف ، لأن المسوّف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة ؟ والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتیاد . فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالمادة كالتي لم يؤكددها . وعن هذا هلك المسوّفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتأملين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق ، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ما سبق . وهو كمن يتفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان . وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده ، وترك ذخائره أمواله في صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى داري ، أو إذا انتهى إل داري مات على باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكى في الأسفار أن مثل ذلك وقع : فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ، ولكنه في غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له :

ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن

قال أعلم استحالة كذلك فهو أعمى معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجبول ، عند تركك طعامك في البيت لحظة ، ولغت فيه حبة ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألد الأطعمة ؟ فيقول أتركه لا محالة ، لأنني أقول إن كذب فلا يموتني إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب ، وإن صدق فتفوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . يقال له : يا سبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ما ظهر من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أساف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجبول ، لعل له غرضاً فيما يقول ! فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر ، وأثبت ثواباً وعقاباً ، وإن اختلفوا في كيفية ، فإن صدق فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد . وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر إلا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقتلنا طائراً يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها . لفنيت الذرة ، ولم ينص أبد الآباد شيئاً . فكيف يفتر رأى الغافل في التصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً ، لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما

ولذلك قال على رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكاً : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً ، وإلا فقد تخلصت وهلك . أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جلية ، ولكنها ليست شاك إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستغفلته ، وما علاج القلوب لربها إلى الفكر ، لا سيما من آمن بأصل

الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة .

والثاني : أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ، ونفس عن أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقت . فصار عقله مسخراً لشهواته ، فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة ؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المانعين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده ، تألماً بذكره ، مع استحقاق أم مواقفته . فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتألم به ! .

وأما الثاني : وهو كون الفكر مفقوتاً للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن قوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذات الدنيا سريعة الدثور ، وهي مشوبة بالمكدرات . فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة بمعرفته ، وطاعته ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ، ولكنها بعدما يصبر عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قائلة ما عودتها تتعود ، والخير عادة ، والشر لاجبة .

فإذا هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات . ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر ، فيصير الفكر موافقاً للطبع ، فيميل القلب إليه . ويعبر

عن السبب الذي أوقع الموافقة بين طمع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق . إذ التوفيق هو التأليف بين ردة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روى في حديث ضار . أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُني فقال علي رضي الله عنه : بني على أربع دعائم . على الخفاء ، والعمى والغفلة ، والشك . فمن جفا أحد الحق ، وجهر بالباطل ومقت العلماء . ومن عمى نسي الذكر . ومن نقل حاد عن الرشيد . ومن شك غرته الأمانى . فأخذته الحسرة والندامة . ومن الله ما لم يكن يختص .

فما ذكرناه بيان لبعض آفات العلم عن التفكير . وهذا القادر في التوبة كاف .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..



فهرس التوبة

صفحة

الموضوع

٥	كلمة الخقق
٩	دراسة التحقيق :
	[هذا الكتاب — المؤلف — عصره — مؤلفاته — حجة الإسلام الغزالي مؤلفاً ومجهداً — منهج التحقيق]
٢١	مقدمة المؤلف
٢٣	تمهيد
٢٥	الركن الأول : في نفس التوبة
	[ويتضمن خمسة فصول]
٥٥	الركن الثاني : فيما عنه التوبة (وهي الذنوب صغائرها وكبائرها)
	[ويتضمن أربعة فصول]
	الركن الثالث : في تمام التوبة ، وشروطها ، ودوامها إلى آخر
٩٩	العصر
	[ويتضمن خمسة فصول]
١٣٧	الركن الرابع : في دواء التوبة ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار .
	[ويتضمن خمسة فصول]

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

AL-MUJAS TAFA.COM